AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

N. MAKHOUL
BINDERY
6 SEP 1972
Tel. 260458

808.3
M94jA
C.1

الجاحظ

و

فن القَصَص في كتابه البخلاء

دراسة ونصوص

بقلم

محمد المبارك

مجاز في الآداب من جامعة باريز
وفي الحقوق والآداب من الجامعة السورية
أستاذ الأدب واللغة في التجهيز ودار المعلمين بحلب

ناقص من صفحة : (٢٠ - ٢٩)

Cat. Jan. 12, 54

مطبعة الترقي بدمشق

١٣٥٨ هـ — ١٩٤٠ م

الفهرس

٤ — كلمة المقدمة :
حالة الدراسات الأدبية الحديثة في الأدب العربي ونقائصها

٩ — طبعات كتاب البخلاء

١١ — مقدمة الموضوع :
الأدب والحياة
آثار الجاحظ وصلتها بالحياة
كتاب البخلاء : قيمته الاجتماعية ، التاريخية الفلسفية ، الأدبية

١٦ — فن القصص . كلمة عامة

١٧ — نصوص مختلفة من كتاب البخلاء :
(١) البركة في المؤاكلة
(٢) الطفيلي

٢٤ — فن الجاحظ القصصي :
١ — الواقعية في الموضوع
٢ — دقة التصوير وقوة الملاحظة
٣ — التحليل النفسي
٤ — الهزل
٥ — الحياد
نتيجة عامة

٣٥ — أسلوب الجاحظ القصصي
١ — واقعية الأسلوب . الألفاظ الحية . تطور التراكيب

٢ — دقة التعبير عن المعاني الحسية والنفسية : الاسماء، الافعال، الاضافة، الـ
٣ — الخيال والصور الفنية
٤ — التفنن في التعبير
نتيجة عامة عن فن الجاحظ القصصي
٤٥ — قيمة كتاب البخلاء في تاريخ الادب
أدب الطبائع
مختارات من كتاب البخلاء :
٤٨ — لو خرجت من جلدك لم أعرفك
٥٣ — من وصية بخيل لابنه يوم موته
٥٤ — اختطاف اللقم
٥٦ — وصف نهم أكول
٥٧ — الشبوطة
٦٠ — الغزال البخيل
٦١ — دجاجة أبي الهذيل أو الدجاجة التاريخية
٦٣ — ضيافة ومنع
٦٥ — أعطى ضيفه المخدة واستلبها منه وهو نائم
٦٦ — أخلاق أبي سعيد
٦٨ — اسماعيل بن غزوان والشيخ
٦٨ — تيه المغنين
٧٠ — شجار في سفينة
٧١ — مائدة شهية
٧٢ — تعليقات لغوية

Rajaa Bakri

وصلى الله على محمد النبي العربي الكريم

كلمة المقدمة

لا شك أن الدراسات الحديثة في الأدب العربي، قد تقدمت تقدماً كبيراً في السنوات الأخيرة على الخصوص، غير أن هذا التقدم لا يزال ناقصاً في مجموعه، وقاصراً على نواحٍ دون نواح، وأول نقص يظهر للباحث في هذه الدراسات الحديثة، هو إهمال النصوص الأصلية أعني نصوص الأدباء والشعراء الذين هم موضوع البحث والدرس واتخاذ الأخبار التاريخية والأحكام النقدية القديمة وحدها تقريباً أساساً للبحث الجديد.

وقد أصبح للنصوص شأن عظيم جداً في الدراسات الأدبية الحديثة في سائر الآداب الراقية وظهر أن هذه الطريقة التي تعتمد على النصوص كثيرة الفائدة عظيمة النتائج وأصبحت دراسة النصوص تبنى على الآراء والنظريات الجديدة التي وصل إليها البحث في علم النفس وعلم الاجتماع وفي الفن والأدب واللغة.

فينظر إلى النصوص أولاً من حيث كونها معبرة عن نفس قائلها

دالةً على مزاجه الخاص كاشفة من خلال ألفاظها ومعانيها عن نزعة الكاتب الفكرية وآرائه الخاصة وعواطفه وحالاته النفسية حين كتبها وأخرجها إلى حيز الوجود الخارجي .

وبنظر إلى النصوص ثانياً من حيث صلتُها بالعصر الذي ظهرت فيه وكونها معبرةً عن بعض نزعاته مصورة لبعض أحواله الاجتماعية والاقتصادية والفكرية ومن حيث كونها تشكل حلقة من حلقات تطور الفكر والفن لها صلة وأثر فيما بعدها كما كان لما قبلها صلة وأثر فيها .

وإن دراسة النصوص على هذه الأسس النفسية والاجتماعية دراسة منتجة تفتح أمام الباحث آفاقاً جديدة وتؤدي به إلى اكتشاف حقائقَ هامةٍ في تاريخ الأدب تتعلق بالكاتب الذي تدرس آثاره أو بالعصر والبيئة الذين نشأ فيهما أو بهذه الآثار نفسها من حيث فكرتها ومكانها من تطور الفكر البشري أو النفس الإنسانية .

وتعتمد دراسة النصوص ثالثاً على نظريات حديثة في اللغة والفن والأدب والنقد فتُظهر النواحي البارزة في النص وقوة تعبير المؤلف عن فكرته أوعاطفتهوالطريقةالتي اتبعها فيعرضها وإبرازها ونصيب المحسوسات والمجردات والحقيقة والخيال من معانيه وأفكاره والأخيلة والصور الفنية التي تثيرها ألفاظه وقسطَ الوضوح ودقة التعبير وجماله من أسلوبه . وفائدة تحليل النصوص في هذه الناحية جليلة أيضاً ، فبها يُعرف تطور اللغة والأساليب وهي الطريقة الوحيدة لإيقاظ الشعور الأدبي وتنمية الذوق الفني بكشف الأسرار الكامنة وإبراز المحاسن المخبوءة .

والنقص الآخر في دراساتنا أيضاً هو ميلنا إلى المواضيع الكبيرة ذات الآفاق الواسعة على حين أن مثل هذه الدراسات لا تأتي إلا بعد

الانتهاء من دراسة المواضيع الصغيرة المحددة النطاق فتكون كالجامعة لها والناظمة لأجزائها وإلا كانت تلك الدراسات سطحية كثيرة الخطأ ذلك أن دور التركيب في هذا الباب متأخر عن دور التحليل . إن كثيراً من الكتاب يميلون إلى الكتابة في الموازنة بين الآداب الشرقية والآداب الغربية أو في تطور الشعر العربي أو في خصائص الأدب العربي العامة أو غيرها من المواضيع المغرية ولكن هل يمكن الآن معالجة هذه الأبحاث ولما تعالج بعدُ الأجزاء الصغيرة التي تتألف منها هذه المواضيع الكبيرة ؟

هذان النقصان هما اللذان دفعا بي إلى انتخاب موضوع محدد النطاق يكون مُعلَّ اعتمادي فيه على النصوص نفسها ، واتفق أن كلفت في سنة ١٩٣٨ — ١٩٣٩ الدراسية بتدريس « تفسير النصوص » في مدرسة دار المعلمين الأولية بحلب وكان لآثار الجاحظ ولا سيما كتاب البخلاء من بين النصوص التي انتخبتها للدراسة والتحليل نصيب وافر فكان هذا الأمر مما سهل عليّ أن أجعل كتاب البخلاء موضوعاً لهذه الدراسة التي أقدمها إلى القراء في هذه الرسالة . وقد سلكت فيها الطريقة الجديدة التي ذكرتها والتي تستعين بمختلف النظريات النفسية والاجتماعية والفنية على تحليل النصوص واستخراج مافيها من فن ومالها من قيمة وقدّمت تحليل قصتين من كتاب البخلاء وجعلت البحث توسيعاً لما استخرجته منهما من خصائص فنية ثم أتبعت البحث بنحو عشرين نصاً انتقيتها من أطرف مافي الكتاب لتمثل كل واحدة منها ناحية أو أكثر من النواحي التي بحثت فيها وجعلت لبعضها عنوانا يناسبها وأكثرت من الاستشهاد بها والإحالة عليها أثناء البحث ولهذا يحسن تصفحها قبل قراءة البحث نفسه كما يحسن قراءتها بإمعان بعد مطالعته وتفهمه .

وأرجو أن أكون بعد هذا قد وُفقت إلى ما أمّلته في كتابة هذه الرسالة ، من عرضِ آراء جديدة تتعلق بكتاب البخلاء ومؤلفه أوصلني البحث في النصوص إليها ، وفتحِ أفق جديد للبحث فيه وتمكينِ المبتدئ من تذوق الجمال الفني في هذا الأثر الأدبي وما عليّ أن يكون ما وصلت إليه من رأى صائباً إذا سلم لي في بحثي بذل الجهد وسداد المنطق واستقامة الطريقة والله الموفق للصواب

دمشق : شوال ١٣٥٨

تشرين الثاني ١٩٣٩ محمد المبارك

مجاز في الآداب من الصوربون

طبعات الكتاب

١ — طبع كتاب البخلاء لأول مرة في ليدن سنة ١٩٠٠ بعناية المستشرق فان فلوتن وهذه الطبعة على ما فيها من تحقيق ، وأمانة في نقل ما في المخطوط الذي أخذت عنه ملأى بالتصحيفات التي لم يتمكن الناشر من تصحيحها .

تصحيحات الأستاذ مارسه :

وقد نشر المستشرق الكبير الأستاذ وليم مارسه سنة ١٩٠٥ في المجلة الآسيوية ، وفي رسالة خاصة أخرجت منها ، تصحيحات طويلة لهذه الطبعة اعتمد في أكثرها على مراجع ونصوص من شتى كتب اللغة والأدب والحديث وهي تدل على تحقيق علمي كبير . وقد عدّل منذ ذلك الحين رأيه في بعض هذه التصويبات وزاد عليها وكنت استأذنته لما اطلعني على هذه التعديلات والزيادات في الاستفادة منها ونشرها في طبعة مكتب النشر العربي بدمشق فقبل متكرماً مشكورا .

٢ — الطبعة المصريه الأولى سنة ١٣٢٣ وهي أردأ طبعات الكتاب ، نقلت عن الطبعة الأوربية دون أن تشير إلى ذلك وهي مشحونة بالأغلاط كثيرة المسخ والتشويه لا يمكن الاعتماد عليها .

طبعة دار الكتب المصرية وقد ضبطها وصححها وشرحها الأستاذان أحمد العوامري وعلي الجارم وقسما أصل الكتاب إلى جزءين وأخرج الجزء الأول سنة ١٩٣٨ ولما يخرج الجزء الثاني وكان هدف الناشرين إخراج كتاب مدرسي وقد وفقا إلى إصابة الهدف فخرج الكتاب متقن الطبع

مشكولاً مشروحاً شرحاً جيداً في جملته ، زائداً عن الحاجة أحياناً وفي هذه الطبعة تصحيح لكثير من التحريفات ولكنها مع ذلك لم تخل منها ومن الأغلاط وهي تمتاز باعتمادها عدا النسخة الأوربية على نسخة مخطوطة في خزانة الشنقيطي بدار الكتب المصرية كتبت سنة ٦٩٩ هـ ولكنه لايمكن الاعتماد على هذه الطبعة من وجهة التحقيق العلمي لتصرف الناشرين تصرفاً شخصياً في تصحيح التحريف والخطأ الموجود في الكتاب وحذفهم من النص ما يبلغ الصفحة في بعض المواضع إما لغرض خلقي وإما لاستحالة إصلاح التشويه والتحريف فهي طبعة مدرسية أكثر منها علمية .

٤ — طبعة مكتب النشر العربي بدمشق ظهرت في سنة ١٩٣٨ أيضاً وهي تعتمد على النسخة الأوربية وعلى تصحيحات الأستاذ مارسه القيمة التي أشرت إليها وملاحظات لفيف من كبار الأساتذة وتمتاز هذه الطبعة بفهارسها العلمية المتعددة وبأمانتها في النقل عن الأصل الذي نقلت عنه وتصحيح بعض التحريفات التي لم توفق الطبعات الأخرى إلى إصلاحها ولكن الشكل والشرح فيها نادران مع الحاجة إليهما أحياناً ولا يزال فيها مع ما بذل من الجهد في تصحيحها تصحيفات لم تمكن معرفة الصواب فيها ولكنها على كل حال طبعة علمية يستطيع الباحث أن يركن إليها في تحقيقه وبحثه .

مقدمة الموضوع

قيمة آثار الجاحظ - كتاب البخلاء

قيمة الاجتماعية - قيمة التاريخية الفلسفية - قيمة الادبية

ظاهرة غريبة ظهرت في الأدب العربي في عصوره المتأخرة على الخصوص ، تلك هي انفصال الأدب عن الحياة . يقول كثير من نقاد الأدب ومؤرخيه إن الأدب مرآة الحياة وصورتها فإذا مارحنا نطبق هذا القول على بعض عصور الأدب ألفينا الشقة بعيدة بين الأدب والحياة حتى إن الأدب غدا في العهد الماضي الذي لم نتخلص بعد من آثاره ، جسماً لا روح فيه ، ولا حياة فنحن اليوم في حاجة لأن نقرب ما بينهما فنغذي الأدب بالحياة ليكون حيًّا ، والحياة بالأدب لتكون جميلة وثمة وسيلتان تفيان بهذا الغرض أولاهما جعل حياتنا الحاضرة مصدراً لأدب قومي جديد فيستلهم الكاتب العربي في كل قطر وفي كل بلد فنَّه وأدبه من جمال الطبيعة التي تحيط به ، ويجعل مشكلات الحياة الاجتماعية والخلقية موضوعاً لأدبه فيطلعنا على حالة الفلاح والبدوي والمدني فيها ويصور نفسياتهم ويصف تفكيرهم ويبين طبقاتهم الاجتماعية كل ذلك بإحدى الطرق الأدبية كالقصة أو الرواية أو المقالة أو غيرها .

وثانيتهما إحياء كل ما كان له بالحياة صلة وثيقة من تراثنا الأدبي

والعناية بدراسته للاستعانة به والاستمداد من عناصره لتكوين الأدب القومي الحديث وأبرز ما في تاريخنا الأدبي في هذا الباب آثار أبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ ، تلك الآثار التي اشتملت سطورها على احياء يعيشون ، يأكلون ويشربون ، يروحون ويغدون ، يفكرون ويشعرون ، وتركت فيها الحياة آثارَ تياراتها المتضاربة ولسنا نتعرض ههنا لتاريخ حياة الجاحظ فان المراجع في ذلك وافرة ولكننا نذكر القارىء بأنه ولد في البصرة سنة ١٥٥ هـ وعاش في بغداد وتوفى سنة ٢٥٥ هـ .

والجاحظ من أولئك الأدباء الذين عاشوا في جو الحقيقة ، ولم يُغرقوا في آفاق الخيال البعيدة ، وكان مرهفَ الحس ، قويَّ الشعور بكل ما يصله بالحياة وقد ترك لنا عن عصره صوراً متعددة تمثل نواحي مختلفةً من تلك الحياة الزاخرة في مدينة بغداد العظيمة في العصر العباسي الأول . فمنها ما يمثل الحياة الدينية وبين الخلاف بين المعتزلة وأهل السنة ويبحث في معضلات الدين الكبرى ومنها ما يصور لنا الأحزاب السياسية وحجج العلوية والعثمانية أو الحياة الفكرية المضطربة التي يمثلها كتاب الحيوان خير تمثيل . ولكن اهتمامه بالحياة الاجتماعية ربما كان أعظمَ وأجدى على الأدب فقد كتب في مواضيعَ انفرد بها كرسائله في القيان واللصوص والكتاب وغيرهم من طبقات الناس وكل هذه المواضيع شديدة المساس بالحياة فهي وصف لتلك الطبقات الاجتماعية الكثيرة التي نشأت في بغداد . وبغدادُ يومئذ مدينة عالمية عظمى لا تضارعها مدينة أخرى في تشعب مسالك الحياة فيها وقوة حركتها وتجمع الناس فيها من كل عرق وأمة ومن كل دين ونحلة .

وكتاب البخلاء من تلك الكتب التي تصور لنا بعض الطبقات الاجتماعية وتصلنا بالحياة في ذلك العصر وتمثل لنا بعض جوانبها ولهذا الكتاب قيمة اجتماعية ، وقيمة تاريخية فلسفية ، وقيمة أدبية .

قيمته الاجتماعية : كانت الحياة الاقتصادية في بغداد قوية الحركة عظيمة النشاط وكان لبغداد من هذه الناحية خطورة عالمية حتى أصبح المال فيها محور الحياة أو عاملاً كبيراً فيها فنشأت وفقاً لقانون التطور الاجتماعي طبقة ارستقراطية جديدة لا تبني مجدها وشرفها على النسب بل على المال تلك هي ارستقراطية المال أو طبقة المتمولين (La Bourgeoisie) وهي تتألف في الغالب من أناس عصاميين ليس لهم أولية في شرف النسب ولكنهم أحرزوا بفضل جدهم وحسن تدبيرهم نوعاً جديداً من الشرف والمتنعمون إلى هذه الطبقة قد يكونون من التجار أو الصناع أو أصحاب العقارات أو الموظفين ولكن يجمع بينهم طراز متقارب في المعيشة وعقلية تميزهم عن غيرهم وكثيراً ما اهتم المحدثون من أدباء الغرب اليوم بتصويرهم وانصرف المؤرخون إلى عرض تاريخهم وعلماء الاجتماع إلى دراسة بيئاتهم وعقليتهم .

وكتاب البخلاء يعرض علينا صورة حية لتلك الطبقة العصاميه المتحولة في بغداد في العصر العباسي الأول . أوليس هذا الكتاب مجموع قصص وأحاديث موضوعها المال وأبطالها المتمولون أو من يلحق بهم ويجعل في طبقتهم

قيمته التاريخية الفلسفية : إن التطور الذي طرأ على بغداد في حياتها الاقتصادية مع ما قارنه من اختلاط الشعوب والأمم بعضها ببعض والتقاء الأديان والمذاهب والنحل المختلفة فيها كان عاملاً كبيراً في نشوء نوع من الريبية (Scepticisme) في الأخلاق والشك في صحة القيم الخلقية (Valeurs morales) القديمة التقليدية التي كانت معروفة عند العرب أدى إلى تزعزع قوي لتلك القيم وحلول قيم جديدة مكانها وإن كان

بقي للقديمة وجود في ظاهر الحياة وفي ناحيتها النظرية لافي حقيقتها وناحيتها العملية فبعد أن كان المثل الخلقي الأعلى يتألف من عناصر أعظمها الشجاعة في ميادين القتال والكرم البالغ وبذل الأموال والتضحية في سبيل مُثُل عليا معنوية أصبح المثل الأعلى الجديد يقوم على قيم أخرى كالدهاء وحسن السياسة والتدبير والاقتصاد. لانقول إن هذا التغير عامٌّ في جميع الناس إذ لاشك أننا حينئذ في هذا الحكم مخطئون ولكنا نقول بإصابة هذا التطور بعض طبقات الأمة أو بعبارة أخرى بنشوء طبقة اجتماعية جديدة لها مثلها الأعلى الجديد وقيمها الخلقية الجديدة وهي التي نعنيها بقولنا والتي جعل الجاحظ تصويرها موضوعاً لكتابه.

ولكن لم يكن أحد ليجرؤ على تصوير هذه الزبية في الأخلاق وهذا التبدل في القيم الخلقية إذ كانت القيم القديمة كما قلنا لاتزال حافظة لحرمتها ومنعتها من الوجهة النظرية فليس لنا إذا ما أردنا الوقوف على هذا التطور إلا نتبعُ الأخبار المبعثرة في كتب الأدب. وقد انفرد الجاحظ بمثل هذه الجرأة فترك لنا في كتاب البخلاء صورة حية لهذا التطور وجعل كتابه هذا معبراً عن تلك النزعة الجديدة.

وقد أشار في مقدمة الكتاب إلى هذا التطور الخلقي إذ قال (ص٨)[1]:

«وسألت أن أكتب لك علة خباب في نفي الغيرة، وأن بذل الزوجة داخل في باب المواساة، والإيثار، وأن فرج الأمة في العارية كحكم الخدمة وأن الزوجة في كثير من معانيها كالأمة، وأن الأمة مال كالذهب والفضة وأن الرجل أحق ببنته من الغريب، وأولى بأخته من البعيد، وأن البعيد أحق بالغيرة، والغريب أولى بالأنفة، وأن الاستزادة في النسل كالاستزادة في الحرث إلا أن العادة هي التي أوحشت منه، والديانة هي التي حرمته، ولأن الناس

(١) الطبعة التي اعتمدناها وأحلنا عليها هي طبعة مكتب النشر العربي بدمشق.

يتزبدون أيضاً في استعظامه ، وينتحلون أكثر ماعندهم في استشناعه . »

ثم يشير إلى رأي الذين يدافعون عن الكذب والذين يفضلون الغباوة وعيش البهائم إلى أن يقول :

« ولولا انك تجد هذه الأبواب ، وأكثر منها مصورة في كتابي الذي سمي « كتاب المسائل » لأتيت على كثير منها في هذا الكتاب » ثم ينتقل إلى موضوع كتابه فيقول :

« فأما ماسألت من احتجاج الاشحاء ، ونوادر أحاديث البخلا فسأوجدك ذلك في قصصهم ان شاء الله تعالى مفرقاً ، وفي احتجاجاتهم مجملاً الخ . »

ألسنا نرى في الكلام الذي ينقله عن نفاة الغيرة نظرية النسبية في الأخلاق التي تقول بإمكان تبدل سائر القيم الخلقية والمشهورة اليوم عند علماء الأخلاق من الاجتماعيين ؟

ولو أن « كتاب المسائل » هذا الذي ذكره قد وقع إلينا لكنا أفدنا في هذا الموضوع علماً كثيراً على أن في كتاب البخلاء كثيراً من الأحاديث والرسائل التي تتضمن نقاشاً أو دفاعاً عن القيم الخلقية الجديدة ولكن فيما يتعلق بالحياة الاقتصادية فحسب ولهذا فإن لكتاب البخلاء في تاريخ الأخلاق ، وفي البحث في تطور القيم ، والمفاهيم الخلقية في المدن الإسلامية في العصر العباسي قيمة كبيرة .

قيمته الأدبية : يمكننا أن نعد كتاب البخلاء في تاريخ الأدب العربي حدثاً هاماً إذ هو أول كتاب يؤلف في فن أدبي كان وسيكون له في الأدب العربي شأن كبير وهو أدب الطبائع « Littérature De Caractere » وسنتكلم عنه في آخر بحثنا .

ومن جهة أخرى هو أول كتاب تظهر فيه القصة في الأدب العربي بشكل فني واضح وسنعنى ببيان هذه القيمة الأدبية ولا سيما ناحية فنه القصصي .

فن القصص

يمكننا بعد ماقدمنا من الكلام أن نعتبر كتاب البخلاء دراسة لطبقة من الطبقات الاجتماعية ولكن مؤلفه لم يعمد في هذه الدراسة إلى طريقة فلسفية مجردة أو تاريخية نقلية بل سلك طريقة أدبية وهي طريقة القصص فعرض علينا هذه الطبقة من الناس في ضرب من التصوير الأدبي البديع يظهر من ورائه عقليتهم ونفسياتهم المختلفة ويغني عن كثير من الدراسات الفلسفية والتحليلات الاجتماعية ويفضلها بإبراز الحقيقة بشكل فني جميل . وقد كان عدول الجاحظ عن الطريقة العلمية الفلسفية إلى الطريقة الأدبية عدول العارف بموقف نفسه والقاصد للخطة التي اختارها فقد قال في أول كتابه: « فأما ماسألت من احتجاج الأشحاء ونوادر أحاديث البخلاء فسأوجدك ذلك في قصصهم إن شاء الله مفرقاً وفي احتجاجاتهم مجملا فهو أجمع لهذا الباب من وصف ماعندي » فالقصد الفني في هذا الكلام الذي بنى عليه كتابه ظاهر .

ولكل كاتب قصصي فن خاص وطريقة خاصة في انتقاء موضوع قصصه وأبطالها والاهتمام فيها ببعض نواحٍ دون بعض تفصيلاً أو إجمالاً وذكراً أو إهمالاً وفي استعمال ألفاظ دون ألفاظ واتباع أسلوب دون أسلوب . فما هو فن الجاحظ في قصصه ؟ وهل هو فن عفوي أم فن مقصود سار الكاتب فيه على قواعد استنها لنفسه واختطها لعمله قبل البدء به ؟ هذا ماسنحاول الإجابة عليه في بحثنا وقد رجحنا أن يكون البحث مستنبطاً من النصوص معتمداً على دراستها وتحليلها فعمدنا إلى بعض قصص الجاحظ وحاولنا استخراج مافيها من فن ثم اتبعنا ذلك بتفصيل ماوصلنا إليه من الخصائص المشتركة والنتائج العامة .

نصوص محللة

- ١ -

البركة في المؤاكلة

« حدثني مويس بن عمران قال :

قال رجل لصاحبه — وكانا إما متزاملين وإما مترافقين — : لِمَ لا نتطاعم؟ فإن يد الله مع الجماعة ، وفي الاجتماع البركة ، وما زالوا يقولون طعام الاثنين يكفي الثلاثة وطعام الثلاثة يكفي الأربعة . فقال له صاحبه : لولا أعلم أنك آكل مني لأدخلت لك هذا الكلام في باب النصيحة . فلما كان الغد وأعاد عليه القول قال له : ياعبدالله معك رغيف ومعي رغيف ولولا أنك تريد أكثر ماكان حرصك على مؤاكلتي ، تريد الحديث والمؤانسة ؟ اجعل الطبق واحداً ، ويكون رغيف كلٍ منا قدامَ صاحبه وما أشك أنك إذا أكلت رغيفك ونصف رغيفي ستجده مباركاً ، إنما كان ينبغي أن أكون أجده أنا لا أنت . » (ص ٣٤)

التحليل

(أ) موضوع القصة :

البخل أو على الأصح لون من ألوان البخل وهو الطمع في الأكل من طعام الناس . وقد ساق الكاتب ، القصةَ على طريقة الحوار بين رجلين كانا في سفر .

تبتدئ القصة مباشرة من غير تمهيد فيخبرنا الكاتب ان الرجلين كانا مترافقين في سفر ثم يسوق الحديث بينهما :

الاول — يغرى رفيقه ويحسن له المؤاكلة فيقدم القضية : (لم لا نتطاعم ؟) ثم يورد الحجة بعد الحجة ظاهراً بمظهر النصح والوعظ والإرشاد .

الثاني — يُعرّض بما وراء هذه النصيحة من طمع

الأول — يعيد الكرة لإقناعه ولا يقطع الأمل منه .

الثاني يكشف الستار بوضوح عن هذا الطمع المادي الذي ألبس لباس النصيحة ويسد على صاحبه أبواب حجته .

(ب) خصائصها :

١ — من حيث الموضوع :

١ : إن هذه الحادثة التي قصها كثيرة الوقوع يتفق مثلها الكثير من الناس فهي واقعية الموضوع

٢ : لم يهمل الكاتب فيها التعبير عن الناحية الحسية المادية : فقد حدد علاقة الرجلين أحدهما بالآخر ، واستعمل مثل قوله : معك رغيف ومعي رغيف ويكون رغيف كل منا قدام صاحبه

٣ : ينكشف في ثنايا الحديث الذي دار بين الرجلين ما جال في ذهن كل منهما وما جاش في نفسيهما فالأول طامع في لباس واعظ ومحتال في زي ناصح والآخر ماهر لا تخدعه الحيلة شديد الاحتفاظ بماله . فالقصة قائمة على تحليل نفسي .

٤ : إن هذا التضاد الواقع في القصة بين النصيحة العالية والجشع المادي في كلام الرجل الطامع وتلك المهاجمة والمدافعة في الحوار

بين رجلين لا يقل أحدهما عن الآخر مهارةً ودهاء ولا حرصاً وبخلاً تجعلها فكاهية هزلية

٥ : وهي أخيراً مجردة عن مغزى خلقي أو تحليل فلسفي فقد ظهر الكاتب فيها بمظهر المصور ولم يجعل القصة وسيلة لنصح أو تهذيب خلافاً لما صنعه ابن المقفع في كليلة ودمنة .

٢ — من حيث التعبير والأسلوب :

١ : الألفاظ دقيقة في تعبيرها مع إيجازها : متزاملين (متشاركين في العمل على دوابها) بتطاعم ، رغيف ، طبق ، مؤاكلة ، مؤانسة

٢ : لغة القصة لغة حية بسيطة من حيث ألفاظها وتراكيبها والتراكيب على الخصوص أشبه بكلام المخاطبة والمحادثة بين الناس منها بالتراكيب المصنوعة وفقاً لقواعد النحو والتراكيب التقليدية من غير إخلال بفصاحة الكلام

(قدام . — لولا أعلم ، لولا أنك تريد أكثر ، تريد الحديث والمؤانسة؟ اجعل ، إنما كان ينبغي أن أكون أجده أنا لا أنت .)

الطفيلي

— ٣ —

وكان قاسم (التمار) شديد الأكل، شديد الخبط، قذر المؤاكلة؛ وكان أسخى الناس على طعام غيره، وأبخل الناس على طعام نفسه؛ وكان يعمل عمل رجل لم يسمع بالحشمة ولا بالتجمل قط: فكان لا يرضى بسوء أدبه على طعام ثمامة، حتى يجر معه ابنه إبراهيم وكان ما بينه وبين إبراهيم ابنه في القذر بقدر ما بينه وبين جميع العالمين.

فكانا إذا تقابلا على خوان ثمامة لم يكن لأحد على أيمانهما وشمائلهما حظ في الطيبات. فأتوه يوماً بقصعة ضخمة، فيها ثريدة كهيئة الصومعة، مكللة بإكليل من عراق بأكثر ما يكون من العراق. فأخذ قاسم الذي يستقبله، ثم أخذ يمنة، وأخذ ما بين يدي من كان بينه وبين ثمامة حتى لم يدع إلا عرقاً قدام ثمامة، ثم مال على جانبه الأيسر فصنع مثل ذلك الصنيع؛ وعارضه ابنه وحاكاه. فلما أن نظر ثمامة إلى الثريدة مكشوفة القناع! عارية! مسلوبة! واللحم كله بين يديه وبين يدي ابنه إلا قطعة واحدة بين يديه تناولها فوضعها قدام إبراهيم ابنه؛ ولم يدفعها واحتسب بها في الكرامة والبر. فقال قاسم لما فرغ من غدائه: أما رأيتم إكرام ثمامة لابني وكيف خصه؟

فلما حكى هذا لي قلت: ويلك ما أظن أن في الأرض عرقاً أشأم على عيالك منه. هذا أحرجه الغيظ، وهذا الغيظ لا يتركه حتى يتشفى منك فإن قدر لك على ذنب فقد والله هلكت؛ وإن لم يقدر عليه أقدره لك الغيظ، وأبواب التجني كثيرة وليس أحد إلا وفيه ما إن شئت جعلته ذنباً فكيف وانت ذنوب من قرنك[1] إلى قدمك» (ص ٣٠٩)

---

(١) هكذا في الأصل ولعله من فرقك مكان قرنك

التحليل

(أ) موضوع القصة وفكرتها الطاغية :

لئن كانت قصص كتاب البخلاء تدور جميعها حول صفة البخل فإن الجاحظ يعرض فيها صوراً مختلفة من صور البخل ونماذج متنوعة من البخلاء، فموضوع هذه القصة الخاص التطفيل والجشع وبطلها طفيلي نهم .

(ب) حوادث القصة وأجزاؤها .

يبدأ الجاحظ فيرسم لنا في أسطر قليلة الخطوط الأساسية من صورة ذلك الطفيلي النهم وقد انتخب منها ما يهمه لبناء القصة وللتعريف ببطلها وهذا التصوير منه ما يتعلق بهيئة الرجل الخارجية في مجالسته ومؤاكلته فوصفه بكثرة الأكل وكثرة الحركة وقذارة المؤاكلة ، ومنه ما يتعلق بنفسيته وخلقه فوصفه بالبخل والتطفيل وسوء الأدب ؛ ثم جعل صورة ابنه من متممات صورته . وهكذا أعطانا الجاحظ في أسطر محدودة صورة واضحة لهذين الشخصين اللذين سيعرضهما في صورة أدق وأتم . — ثم ينتقل بنا مستعيناً بهذه الجملة الانتقالية : (فكانا إذا تقابلا على خوان ثمامة .. الخ) التي تدل على أن مائدة ثمامة لم تكن لتخلو منهما إلى حوادث القصة وإلى تصويرهما وهما في أحد تلك المشاهد التي يجليان فيها .

وفي هذا القسم يظهر فن الجاحظ واضحاً وتتبين قوة ملاحظته : فهو يصف القصعة وما فيها وشكلها المخروطي وما بكللها من عظم

ولحم ثم يصف وضع الطفيليين ومجلسها من القوم ويصور بدقة زائدة حركات الحصار والتطويق التي يقومان بها . ثم ينتقل إلى وصف الأثر الذي أحدثه هذا المنظر في نفس ثمامة صاحب الدار ويختم المشهد المضحك بكلام الطفيلي البارد الذي يكشف عن نفسيته وينهي القصة بما فيه تحليل ووصف لما هاج فى نفس ثمامة من الغيظ والحنق وحب الانتقام ولكنه أبرز هذا التحليل في شكل حوار دار بينه وبين قاسم الطفيلي تتراءى لنا من ورائه سخرية الجاحظ وخبرته بدخائل النفوس وما يجري فيها من الانفعالات والتأثرات .

يمكننا الآن أن نرسم الخطة التي سار عليها الجاحظ في ترتيب القصة ونبين أجزاءها الأساسية :

١ — مقدمة للقصة التي فيها تعريف كاف ببطلي القصة

٢ — الطفيلي وابنه على مائدة ثمامة وفيه وصف دقيق هزلي

٣ — حديث الجاحظ مع الطفيلي وفيه تحليل نفسي ووصف عاطفي

(ج) التعبير والاسلوب :

١ — من التعابير ما يدل دلالة دقيقة على أشياء مادية حسية : قصعة ، خوان ، ثريدة ، عراق ، ...

٢ — ومنها ما يدل على تصوير للأشكال والحركات مع إثارة صور خيالية مجسمة : شديد الخيط ، قذر المؤاكلة ، كهيئة الصومعة ، مكشوفة القناع ، مسلوبة ، عارية .

٣ — ومنها ما يدل على معنى نفسي أو عاطفي : أحرجه الغيظ ، يتشفى ، التجني ، .. وأسلوب هذه القصة متين التركيب متراص

الجمل يرتفع عن أسلوب القصة السابقة لأن الكاتب هنا يتكلم بنفسه ولا يحكي كلام أبطال القصة وبالإجمال فإننا نجد هنا من الخصائص ما وجدناه في القصة السابقة :

١ — واقعية في الموضوع

٢ — دقة في التصوير

٣ — تحليل نفسي وتصوير عاطفي

٤ — الهزل

٥ — التجرد عن الشرح أو التعليق أو استنباط المغزى الخلقي .

فن الجاحظ القصصي

يمكننا بعد ما قدمناه من تحليل النصوص أن نقول إن للجاحظ في القصة فناً خاصاً وإن لقصته خصائص تجعل منها أدباً شخصياً يظهر فيه أثر صاحبه وها نحن أولاء ذاكرون هذه الخصائص بادئين بما يتعلق منها بالموضوع ومتبعيه بما يتعلق بالأسلوب .

الخاصة الاولى : الواقعية

إن موضوع قصص الجاحظ مأخوذ من الحياة الواقعة سواء أكانت واقعة بالفعل كما يزعم أم لم تكن كذلك إذ الذي يهمنا من الناحية الأدبية هو أن يكون لها في الحياة أشباه وأمثال لتستحق « صفة الواقعية » ولتتميز عن تلك التي تحتاج إلى رحلة يقوم بها الكاتب في عالم الوهم والخيال .

الواقعة في الأدب (Le réalisme) هي أن ينتزع الكاتب من الحقيقة الراهنة والحياة الواقعة عناصر موضوعه ولا يشترط في الواقعي أن يكون واقعاً بالفعل بل يكفي أن يكون له في الحياة نظائر وأن تستمد عناصره وتؤخذ تفاصيله من الحقيقة الواقعة وإن لم تكن هذه العناصر والتفاصيل مجتمعة في الحقيقة على الشكل الذي جعلها الكاتب فيه .

وقصص الجاحظ جميعها من هذا النوع من حيث موضوعها وتفاصيلها : فأبطال قصصه هم ناس من مخلوقات الله لا من مبتدعات الخيال فهم ما بين قاضٍ أو عالم أو تاجر أو غزّال أو صانع أو مغنٍ أو أعرابي ، ومن سكان البصرة أو بغداد أو خراسان أو البادية وكذلك مسرح القصة أو المكان الذي تجري فيه فهو في الغالب محدد تحديداً كافياً فقد تجري القصة في دار

صديق للجاحظ في بغداد أو في بستان في ضاحيتها أو في حمام في باب الكرخ أو في مسجد من مساجد البصرة . وأما العصر فهو عصر الجاحظ أي العصر العباسي الأول وأما الزمان الخاص الذي تجري أثناءه القصة فقد يحدده حين الحاجة في بعض القصص كأن تجري ليلاً أو نهاراً ، صباحاً أو مساءً أو ظهراً إذا كان فيها ما يتطلب مثل هذا التحديد (انظر ص ٤٣ ، ٦٢ ، ١٩٥ ، ١٩٦) .

ولكن الجاحظ لم يكتف بتعيين أبطال قصصه وتحديد مكانها وزمانها بل اهتم أيضاً بالتفاصيل الدقيقة والحوادث الصغيرة فاطلعنا بهذه الوسيلة على كثير من نواحي الحياة الاجتماعية في عصره كعادات الناس في مأكلهم ومشربهم وملبسهم ومسكنهم وضيافتهم وولائمهم ومعاملاتهم الاقتصادية (انظر في ص ١٢٦) رسالة المؤجر إلى المستأجر وفي ص ٣٥ اتخاذ المسارج ، وفي ص ١٦٢ عادات غير المسلمين في ألبستهم وأمتعتهم وفي ص ٨١ طرق الاحتيال وأنواع المحتالين .)

هذا وإن الواقعية يمكن أن تكون على أشكال مختلفة ما دامت الحياة لها مصدراً ومنبعاً فمسرح الحياة واسع جداً وكل كاتب يعرض علينا منها مشاهد وحوادث تختلف باختلاف طبعه ومزاجه وفلسفته في الحياة وثقافته . فقد يختص كاتب بوصف طبقة خاصة من الناس كالعمال أو الفلاحين أو بتصوير نماذج من البشر خاصة وقد ينتقي مشاهد البؤس والشقاء أو مسارح الترف والنعيم فيوحي إلى النفس تشاؤماً في الحياة أو تفاؤلاً ، وقد يصور المظاهر الحسية ويكتفي بها أو يضيف إليها وصف العوامل النفسية والبواعث العاطفية وهكذا فإن لكل كاتب واقعي طريقة شخصية ولواقعيته خصائص مميزة وسنحاول فيما يلي تحديد هذه الخصائص التي تميز في الجاحظ القصصي .

الخاصة الثانية : دقة التصوير وقوة الملاحظة

لم يسلك الجاحظ في قصصه مسلك التحليل المجرد أو التفكير الخالص من المادة بل عني بتصوير الأشياء المادية بدقة وتفصيل فإذا ما ذكر شيئاً منها حدد نوعه وجنسه ودل عليه باسمه الخاص دون الاكتفاء بالألفاظ العامة والكلمات المبهمة المشتركة فإذا مر بذكر المسارج ذكر ما يصنع منها من الخزف والحجارة وما يصنع من الزجاج وبين كيفية إصلاحها والارتفاق بها والآلة التي تشخص بها الفتيلة (ص ٣٥ — ٣٨) وإذا عرض ذكر الطبخ لم يفته أن يذكر الخل والتوابل والثوم حتى الحطب (ص ٤٠) ولم يرض أن يقول باختصار : إن القاضي حمل غداءه في منديل حتى يبين أن فيه « جردقتين وقطع لحم سكباج مبرد وقطع جبن وزيتونات وصرة فيها ملح وأخرى فيها أشنان وأربع بيضات ليس منها بد » (ص ٤٣) وكتاب البخلاء حافل بكثير من أسماء الأطعمة المعروفة لذلك العهد كالجوذابة والفالوذج والخشكنان والهريسة والحويرة والسكباج والعصيدة وغيرها [1] وقد عدد للسمك أنواعاً كثيرة كالشبوطة والشلقة والجوافة وفي الكتاب ذكر لكثير من أنواع الألبسة والآلات والادوات التي يرتفق بها في الحياة اليومية .

وقد اهتم الجاحظ أيضاً بتمثيل الأشكال الظاهرة وعني على الخصوص بتصوير الهيئات والحركات فأبدع فيها أيما إبداع . وقد رأينا في قصة الطفيلي وصفه للقصعة « عليها ثريدة كهيئة الصومعة مكللة بإكليل من عُراق » وتصويره لحركات الطفيلي وابنه أثناء الأكل . وقال في قصة أخرى يصف جماعة على مائدة بخيل ينتظرون أن يأتيهم بالخبز ليتموا أكلهم : « فأكل كل إنسان رغيفه إلا كسرة ولم يشبعوا فيرفعوا أيديهم ولم يُغذَوا بشيء فيتموا

(١) انظر فهرس الأطعمة والمآكل في طبعة مكتب النشر العربي .

أكلهم والأيدي معلقة وإنما هم في تنقير وتنتيف » ونحيل القارئ على النصوص المذكورة في آخر هذه الرسالة ليرى تتمة هذه القصة ويقرأ تصوير الجاحظ للنهم الأكول وهو يأكل وللمغنى وهو يدحرج الخابية ولاختطاف اللقم من الأيدي .

وهذه الدقة — التي نراها عند الجاحظ — في تصوير الأشياء ذات قيمة عظيمة في سائر الفنون فما أكثر ما بيّن نقاد الآداب الغربية حين الكلام عن علاقة العلم بالفن أن الفن إنما يُعنى بالخاص كما يعنى العلم بالعام فالمصور البارع هو الذي يصور منظراً من المناظر تصويراً يتميز به عن كل منظر من جنسه بما يكتشف فيه من الخصائص المميزة والسمات الذاتية والكاتب الأدبي في هذا الموضوع كالمصور . والفنان بسبب دقة إحساسه يشعر أمام كل واحد من المناظر المتشابهة والصور المتحاكية والأنغام المتقاربة بشعور خاص ، والشعور آلته في كل مايتلذذ به من آثار الطبيعة والناس وهو يخاطب من الناس شعورهم وإحساسهم وأما العالم فإنه يحاول أن يكتشف مافي الحوادث المتجانسة من صفات عامة مشتركة ليستخرج منها قانوناً عاماً ، وآلته في محاولته هذه انما هو العقل وإن توجه إلى الناس فإنما يخاطب عقولهم وتفكيرهم ولسنا نريد من كل هذا أن نقول إن الفنان لايهتم بالخاص ولا يستعين إلا بالشعور وان العالم لايهتم الا بالعام ولا يستمد إلا من العقل ولكنا نريد بذلك أن نصيب الخاص من عمل الفنان أكبر وأن قسط العام من عمل العالم أوفر وان الأول إلى دقة الإحساس أحوج والثاني إلى قوة العقل أفقر . فإذا اعتبرنا هذه النظرة في الفن عرفنا أن الجاحظ في قصصه فنان قوي الإدراك لدقائق الأشياء والشعور بمميزاتها الخاصة .

الخاصة الثالثة : التحليل النفسي

ولكن واقعية الجاحظ لا تقف عند تلك التفصيلات الدقيقة والظواهر الحسية بل تستند إلى تحليل نفسي واجتماعي وتصوير لبعض الأحاسيس والعواطف . ونحن واجدون في كتاب البخلاء تحليلاً لبعض النفسيات الخاصة أو لبعض العواطف أو الطبائع الإنسانية كالبخل والكرم أو لبعض الإحساسات أو العواطف العارضة كالغضب والغيظ والسرور وسنورد أمثلة على كل من هذه الأنواع .

وقد سلك أبو عثمان فيها جميعها مسلكاً واحداً فلم يورد تحليله بشكل جاف ولكنه أخفاه وراء تصوير المظاهر المادية وتمثيل الحركات الحسية فجعل لكل حالة نفسية شكلاً مادياً تبرز وتتجسم فيه وهذا يدل على ما عند الجاحظ من البراعة الفنية .

رأينا في قصة الطفيلي كيف تجلت من وراء حوادث القصة نفسية الطفيلي بشكل واضح ولا سيما بعد تلك المقدمة التي عرفنا الجاحظ فيها بذلك الرجل وتصلح هذه النفسية المصورة هناك أن تكون نموذجاً لنفسية الطفيلي الثقيل ومن القصص التي تظهر فيها نفسية أبطالها بوضوح قصة الدجاجة التاريخية كما عنوناها (انظرها في قسم النصوص المنتخبة) وفي أحاديث « المسجدبين » من أهل البصرة وما كانوا يتداولونه من آراء ويتناقلونه من أخبار ما يدل على نفسيتهم الخاصة وطريقتهم في التفكير في شؤون الحياة (ص ٥٠)

وإليك نموذجاً من نظراته في الأخلاق وتحليله لبواعث الكرم على لسان أحد البخلاء في رسالة طويلة ملأى بالملاحظات الاجتماعية الهامة :

« ووجدنا عطية الرجل لصاحبه لا تخلو أن تكون لله أو لغير الله فإن كانت لله فثوابه على الله ، وكيف يجب عليّ في حجة العقل شكره وهو

AMERICAN UNIVERSITY
LIBRARY
OF BEIRUT

والتغير في النسب قد يكون في الأشياء الحسية الظاهرة فيضحك الإنسان من بعض الأوضاع الغريبة الشاذة والهيئات المتناقضة أو الأقوال الموضوعة في غير مواضعها المعروفة وكثيراً مايلجأ مخرجو الروايات السينمائية في المواقف الهزلية إلى أمثال هذه الأسباب الحسية للضحك وقد يكون هذا التبدل في النسب في الأمور المعنوية والنفسية فنضحك مثلاً من بعض التفكيرات الغريبة والتصرفات الشاذة . ونحن نجد في قصص الجاحظ النوعين جميعاً فمن النوع الأول وصفه لهيئة الطفيليين وقد جلسا إلى المائدة ولهجومهما وحركاتهما — وقد مرت القصة — ووصفه للنهم وهو يأكل وللمغفل يدحرج الخابية في الطريق ثم يختبئ لئلا يراه الناس ووصفه لشجار وقع بين رجلين في سفينة ولاختطاف اللقم من الأيدي (انظر قسم النصوص) والمضحك في كل هذه الأمثلة هيئات وحركات خاصة غير معتادة . وأما النوع الثاني وهو المبني على عنصر نفسي أو معنوى فمنه ماذكرنا من قصة الرجل يقنع رفيقه ببركة المؤاكلة ومن ذلك قصة صاحب الشبوطة الذي يضحكنا الجاحظ من تزايد غيظه وغضبه وقصة الرجل يطرب فيشق قميصه ثم يأمر خادمه بشق قميصه ووصية الرجل لابنه يوم الرؤوس (قسم النصوص) .

فهذه الخصائص الثلاث التي ذكرناها أعني دقة الوصف والتصوير ، والتحليل النفسي ، والهزل هي الميزات التي تختص بها طريقة الجاحظ الواقعية في قصصه .

الخاصة الخامسة :

وأخيراً فإن مما امتازت به قصص الجاحظ تجردها عن رأي كاتبها فيها واستنكافه عن التعليق عليها سواء كان ذلك لتقبيح ماتضمنته أو لتحسينه فلم يخرج تصويره بوعظ بارد أو نصح مستثقل في مثل هذا الموضع بل ترك

القصة خالصة للفن مجردة عن الأغراض الأخرى الفلسفية أو الخلقية واكتفى بعرض مشاهد انتقاها ونفسيات صورها ثم ترك للقارئ إن هو أبى إلا الجد أن يستنتج من تلك القصص ماشاء من نظرات في الحياة وآراء في الأخلاق على أن الأمر ليس على مايبدو في ظاهره فإننا إذا أمعنا النظر وجدنا أن الجاحظ قد بين رأيه في كثير من المواطن بطريق خفي وذلك بأن أعطانا عن الشخص الذي يريد تهجين أمره والتنفير من صفته ونقد خلقه صورة قبيحة أو هزلية مضحكة وكأنه ينظر إلينا من وراء ستار رقيق مشيراً إلى قبح الصورة التي يعرضها بابتسامة خفيفة لاذعة . وهذا هو موقف الجاحظ في القصص التي تدور حول بعض ثقلاء الطفيليين أو أدنياء المقترين أو الجشعين المنهومين ولا مسوغ في رأينا حينئذ لما ظنه بعضهم من أن الجاحظ إنما لم يدفع حجج البخلاء ولم يقبح عملهم ويذم بخلهم لأنه كان نفسه بخيلاً .

ولأبي عثمان عدا هذه التعريضات الخفية تعليقات صريحة في بعض القصص ولكن هذه التعليقات إن هي إلا استدراكات على القصة لتتميمها كما في آخر قصة الطفيلي أو انتقادات لبعض حوادث القصة من حيث صحتها وإمكان وقوعها (انظر ص ٢٠٩ ، ٢١١)

يمكننا وقد انتهينا من بيان الخصائص التي يقوم عليها فن الجاحظ في القصة أن نختم قولنا فيها بنتيجة جديدة نصل إليها وأن نجيب على سؤال كنا طرحناه في مفتتح البحث حين تساءلنا عن فن الجاحظ هل هو أمر عفوي أم نتيجة خطة منظمة وفكرة سابقة ؟

إن المذهب الواقعي (Réalisme) في الآداب الغربية الحديثة مبني على الاستمداد من الحياة الواقعة وعلى دقة التصوير وعلى التجرد من آراء الكاتب الصريحة وتعليقاته الشخصية ولا يمنعنا قدم عهد الجاحظ وحداثة

2,25

هذا المذهب أن نجعل أدبه من هذا النوع إذا كنا قد وجدنا شروطه وقيوده مستوفاة مرعية في كتاباته وإن لم يسمع هو بهذا الاسم المستحدث وإنني أذهب إلى أبعدَ من هذا فأقول إن الجاحظ وضع في كتاب البخلاء قواعد وأسساً تشبه قواعد المذهب الواقعي فهو لم يسلك هذه الطريقة عفواً ولكنه تعمدها وحددها فقد قدّم كتابه بمقدمة طويلة بين فيها طريقته في تأليف الكتاب واحتج لها ومن جملة ماقال فيها ماسقناه في أول بحثنا : « فأما ماسألت من احتجاج الأشحاء ونوادر أحاديث البخلاء فسأوجدك في قصصهم ان شاء الله مفرقاً وفي احتجاجاتهم مجملاً فهو أجمع لهذا الباب من وصف ماعندي » .

وذكر لنا أيضاً مصادر كتابه فقال (ص ٢٣٦) : « هذه ملتقطات أحاديث أصحابنا وأحاديثنا وما رأينا بعيوننا فأما أحاديث الأصمعي وأبي عبيدة وأبي الحسن — لعله يريد الاخفش — فإني لم أجد منها مايصلح لهذا الموضع إلا مافد كتبته في هذا الكتاب وهي بضعة عشر حديثاً » وقال أيضاً (ص ١٦٨) : « وما علمت أن أحداً جرد في ذلك كتاباً إلا سهل بن هارون » وما نظن أن أديباً يحدد مصادر أدبه بأكثر من هذا التحديد ونعتقد أن الأدب متأثر في هذه الناحية بكتب الدين التي كان لابد فيها من العزو وذكر مصادر الرواية .

وقال في موضع آخر بعد أن ذكر قصة وجد في بعض حوادثها شيئاً من المبالغة (ص ٢٠٩) : « ولا يعجبني هذا الحرف الأخير لأن الافراط لاغاية له وانما نحكي ما كان في الناس وما يجوز أن يكون فيهم مثله

حجة أو طريقة ، فأما مثل هذا الحرف فليس مما نذكره وأما سائر حديث هذا الرجل فإنه من الباب . » وهذا قول صريح في بيان أساس مذهبه في هذا الموضوع يصلح لأن يكون تعريفاً للمذهب الواقعي : تصوير

ماكان واقعا بالفعل أو مايجوز أن يقع مثله . على أن الجاحظ ، وهو الفنان القوي الشعور والملاحظة ، على محاولته الشديدة في تصوير الواقع يشعر أحياناً أنه لايزال بين الحقيقة وتصويره بون فيقول بعد أن يصور حادثة (ص٨٢) : « وهذا وشبهه إنما يطيب جداً إذا رأيت الحكاية بعينك لأن الكتاب لايصور لك كل شيء ولا يأتي على كنهه وعلى حدوده وحقائقه . »

يحق لنا بعد كل هذا أن نقول إن للجاحظ فناً شخصياً وطريقة خاصة في أدبه القصصي وأنه فن منظم مقصود ذكر لنا بعض قواعده عرضاً ورأيناه في قصصه متبعاً وسنرى في البحث عن أسلوبه في القصص مايؤيد هذه النتيجة .

أسلوب الجاحظ القصصي

إن من أعظم الميزات التي تطبع أدب الجاحظ بطابع شخصي خاص أسلوبه المبتكر ولهذا يهمنا أن نعرف خصائص هذا الأسلوب . ولكننا سنعنى هنا باستخراج خصائص أسلوبه في القصص على وجه خاص كما يتجلى لنا في كتاب البخلاء وإن كان بعض هذه الخصائص عاماً ينطبق على جميع آثاره .

الخاصة الاولى :

إن الواقعية في الموضوع التي كنا ذكرناها يقابلها ويتممها واقعية في الأسلوب في الألفاظ والتراكيب وصيغ الكلام وروحه العامة .

فألفاظه ألفاظ حيّة ، هي بنت الحياة لابنت الكتب ، فهو يستعمل الألفاظ التي كانت شائعة معروفة في عهده حتى إننا نجد بينها مالا يزال مستعملاً إلى اليوم في لغتنا العامية فمن ذلك :

قوّر الرغيف إذا أخذ أوساطه وترك حروفه ، ونتر يده من أيدينا ، والشرب على الربق ، والترويج بمعنى التعجيل ، والروشن بمعنى الشرفة (وهي فارسية الاصل) ، والعلالي للغرف العالية والسَكْر بمعنى سد النهر والكباب للحم المشروح المشوي ، والوجبة للأكلة الواحدة ، والبَسْط في مثل قوله « فإن كانوا محتشمين وقد بسطناهم » وقوله في البيان والتبيين « والعرب تجعل الحديث والبسط والتأنيس والتلقي بالبشر من حقوق القرى[1] » .

(١) البسط هنا في كلام الجاحظ بمعنى إدخال السرور ولا تزال مستعملة في عامية الشام بمعنى السرور والانشراح وأما في عامية العراق فالبسط شيء آخر وقاك الله شره فهو الضرب بالسياط .

ولا نقصد من هذا الاستشهاد أن نقول (إن هذه الألفاظ ليست عربية بل أكثرها عربي فصيح ولكن هذا الأمر لا يهمنا وإنما يهمنا أن تكون هذه الألفاظ - فصيحة كانت أو غير فصيحة - مستعملة في عصره بين الناس)

(ومثل الألفاظ في هذه الناحية التراكيب والواقعية فيها أظهر وأوضح فقد وضع الجاحظ على لسان كل إنسان مايشاكله من الألفاظ والتراكيب كما جعل لكل ظرف وحالٍ أسلوباً مناسباً فإن كان المتكلم من طبقة العلماء والبلغاء أجرى على لسانه الألفاظ البليغة والتراكيب الجزلة المتينة وإن كان خادماً أو سوقياً أجرى على لسانه من الكلام ماهو به أشبه وأليق وإن كان الحديث في بيع أو شراء أو مايشبههما من الأمور البسيطة والمعاملات اليومية جعل الكلام بسيطاً سهلاً وراعى كذلك في ترتيب أجزاء الجملة وفي صيغ الكلام وتقطيع الجمل مايراعيه الإنسان في كلامه في مثل تلك الأحوال .)

فإن كان المتكلم من طبقة القضاة أو المتكلمين أو أشباههم وجدت في كلامه أثراً من أسلوب الفقهاء كما يواجهك منطقهم وقياسهم :

« قال أبو نواس : كان معنا في السفينة ونحن نريد بغداد رجل من أهل خراسان ، وكان من عقلائهم وفهمائهم ، وكان يأكل وحده ، فقلت له : لِمَ تأكل وحدك ؟ قال : ليس عليّ في هذا الموضع مسألة إنما المسألة على من أكل مع الجماعة لأن ذلك هو التكلف وأكلي وحدي هو الأصل وأكلي مع غيري زيادة في الأصل . » (ص ٤٢)

وقد رأينا فيما تقدم مثالاً لأسلوب المحادثة والكلام العادي البسيط في القصة الأولى التي نقلناها (البركة في المؤاكلة) ومن هذا النوع من حيث اللهجة وصيغة الكلام قوله حكاية عن رجل يلوم حريصاً من كلام له طويل (ص ٢٣١) :

« ... ماهذا الحرص ؟ وما هذا الكد ؟ وما هذا الشغل ؟ لو كنت

شاباً بعيد الأمل كيف كنت تكون؟ ولو كنت مدبناً كثير العيال كيف كنت تكون؟ »

وقوله حكاية لنداء البائع (ص ١٠١) : الخوخ! الخوخ .

والأمثلة التي تمثل هذه الناحية كثيرة في كتاب البخلاء يمكن تتبعها والمطابقة بين طبقة المتكلم وطبقة الأسلوب حتى إن الجاحظ ذهب إلى أبعد من ذلك فأجاز رواية اللحن ، والخطأ في القصص والنوادر الأدبية إذا كان اللحن والخطأ في كلام قائلها وهذه الطريقة في مراعاة حال المتكلم والمناسبة في الأسلوب متبعة معروفة في الأدب الواقعي ويمكننا أن نقول ههنا ايضاً إن الجاحظ وضع القاعدة في هذا الباب إذ قال (ص ٦٤) :

« وإن وجدتم في هذا الكتاب لحناً أو كلاماً غير معرب ، ولفظاً معدولاً عن جهته ، فاعلموا أنا تركنا ذلك لأن الإعراب يبغض هذا الباب ويخرجه من حده إلا أن أحكي كلاماً من كلام متعاقلي البخلاء وأشحاء العلماء كسهل بن هارون وأشباهه » .

(« وإن لأسلوبها) من هذه الناحية (ميزة كبرى إذ أنه يعطينا أمثلة صادقة عن لغة عصره في المحادثة والمخاطبة والمناظرة والمناقشة نفيدنا في دراسة تطور اللغة من ناحيتي مفرداتها وتراكيبها وعلى الخصوص من الناحية الثانية فإن مما يستلفت النظر في أسلوبه صيغ الكلام وشكل تأليف الجملة وترتيب أجزائها وإننا نجد في كثير من الأحيان تشابهاً غريباً بين شكل جملنا العامية اليوم والجمل التي يستعملها الجاحظ في بعض قصصه في حين أنها تخالف الجمل التقليدية والقواعد المعروفة بعض المخالفة) فأثر تطور لغة المحادثة في العربية ظاهر في أسلوب بعض قصص الجاحظ ويلاحظ فيها انتقال الجملة العربية من طور البساطة إلى طور التركيب فهناك كثير من الحذف والاختزال والتنوع في الصيغ والتغيير في ترتيب عناصر الجملة

والاستعمال للأفعال الناقصة (أو ما يسميه نحاة الفرنجة الأفعال المساعدة) للدلالة علَى أنواع من الأزمنة المركبة الموجودة نظائرها اليوم في بعض اللغات الغربية كالفرنسية التي مرت بمثل هذه الأدوار في تطورها ؛ وهذا التطور في اللغة أو بالأصح في تراكيبها وجملها هو ما يدرسه الفرنجة في علم خاص يدعى بالفرنسية « La siyntaxe historique » .

وهانحن أولاء موردون بعض الجمل الخاصة التي تدل على مثل هذا التطور والتي ترى فيه الأفعال الناقصة الدالة على الأزمنة المركبة[1] :

« وقد كان هذا المذهب صار عندهم كالنسب (ص ٥١) ، « وإنه كان إذا صار الدرهم في يده » (ص ٢٠٧) ، « وكان ذلك لا يكون منه إلا في آخر لقمة » (ص ١٩١) ، « لو قد ذهب هؤلاء الثقلاء لقد أكلنا » (ص ٢٤١) ، « فقد يكون أن يكون الرجل سليم الصدر » (ص ٣٠٥)

الخاصة الثانية :

رأينا في الجاحظ مصوراً قوي البصر في الدقائق ، وخبيراً نافذ البصيرة في معرفة النفوس ، وهاتان الخصلتان تقابلهما في الأسلوب دقة التعبير عن المعاني الحسية والنفسية في الألفاظ والتراكيب .

فهو يستعمل الألفاظ التي تتخصص مدلولاتها بها ولا تتناول سواها بقدر ما تسمح له اللغة بذلك فإذا ذكر آلة أو أداة أو طعاماً أو لباساً أو شيئاً من هذه الأشياء المادية ذكرها باسمائها الخاصة وفرق بهذا التخصيص بين أنواعها المختلفة فمن ذلك :

---

(١) الازمنة البسيطة هي الماضي والحاضر والمستقبل والمركبة ماينشأ من تركيب هذه الأزمنة كأن يكون الفعل ماضياً بالنسبة لفعل مستقبل او مستقبلاً بالنسبة لفعل ماض وهو بالنسبة الى الحقيقة قد مضى أيضا او ماضياً بالنسبة لفعل ماض فكلاهما ماض ولكن احدهما أسبق من الآخر ، ونعتقد ان هذه الازمنة موجودة في العربية وان لم ينبهها النحاة ولهذا فهي محتاجة إلى بحث نحوي جديد .

الشبوطة والجوّافة والشلّقة لضروب من السمك ، والجعفرية لضرب من السفن ، والمسرجة والمصباح والقنديل لما يستصبح به ، والصّمام لما تسد به القوارير ، والكسّاح للعامل الذي ينظف المشاعب والمجاري ، والشارع للسكة الكبيرة ، والرائغ للطريق الضيقة بين المنازل ، والحُصُر والبواري (جمع بوريّ وباريّ وهي الحصر المنسوجة) ، والمخدة والمرفقة ، والمبطنة والقميص ، والكساء ، والجبة والبرّنكان ، والقلنسوة لأنواع من اللباس ، وأما أسماء أنواع الأطعمة والولائم وصنوف المحتالين والمكدين فأكثر من تحصى في الكتاب.

(راجع ص : ١٥٩ ، ١٩١ ، ١٦٩ ، ٣٥ ، ٣٦ ، ١٦٧ ، ١٨١ ، ٣٢٧ ، ١٦٥ ، ٢٠٦ ، ١٦٥ ، ٩٢ ، ٦٠ ، ٣٩ ، حيث تجد الألفاظ المتقدمة — أسماء المحتالين : ٨١ — ٨٥ — أسماء الأكلة : ١١٨ — ١٢١ ، — أنواع الولائم ٢٥١ وأما أسماء الأطعمة فله في آخر الكتاب من الطبعة الدمشقية فهرس خاص وإن لم يكن تاماً .

ونجد هذه الدقة أيضاً عنده في استعمال الأفعال للدلالة على عمل بعينه أو على هيئة أو على حالة خاصة) ومن ذلك :

التقوير والتنقير والتنتيف (للرغيف) ونشيش اللحم لصوته حين القلى وتزيده ، « وماء النخالة يعصم » أي يمنع من الجوع ، وتكرّش الكساء وكدم أنف السمكة ، ويَطُرّ جنبيها وبطنها باللقمة بعد اللقمة (أي يمر القطعة من الخبز ضاغطاً بها عليها كما يفهم من سياق القصة) ودعني أُغفي في دهليزك ، وهجمت عليه بمعنى دخلت فجأة على غير ما انتظار منه ، وحاط بطن السمكة بلَحْظه ، وشحا للقمة فاه ، وبكّر البرد أتى قبل أوانه ، وما تحلحل لي سن ، وتعصّر قليلاً ثم باح بسره ، وأمثالها كثيرة يمكن الرجوع فيها إلى النصوص نفسها .

ومن ذلك أيضاً قوله في وصف نَهِم أكول (ص ١٢٢) :

« وكان إذا أكل ذهب عقله ، وجحظت عينه ، وسكر ، وسَدِر ، وانبهر وتربد وجهه ، وغضب ، ولم يسمع ، ولم يبصر[1] » .

وقد يتوصل الجاحظ إلى التخصيص بالنعت وإلى التقييد بالإضافة كقوله في وصية والد بخيل لولده (ص ١٧٢) : « وكان إذا كان يوم الرؤوس أقعد ابنه معه على الخوان إلا أن ذلك بعد تشرّط طويل وبعد أن يقف به على مايريده وكان فيما يقول له : إياك ونهم الصبيان وشره الزراع وأخلاق النوائح ودع عنك خبط الملاحين والفعلة ونهش الأعراب والمهنة ... واعلم أنه إذا كان في الطعام شيءٌ طريف ولقمة كريمة ومضغة شهية فانما ذلك للشيخ المعظم والصبي المدلل ولست واحداً منهما ... أيْ بني ! عوّد نفسك الأثرة[2] ومجاهدةَ الهوى ، والشهوة ، ولا تنهش نهش الأفاعي ولا تخضم خضم البراذين ، ولا تدم[3] الأكل إدامة النعاج ، ولا تلقم لَقْم الجمال . »

و كقوله في قصة الطفيلي : « وكان شديد الأكل ، شديد الخبط ، قذر المؤاكلة » وقوله في موضع آخر (ص ٧٨) : « سل عني صعاليكَ الجبل وزواقيلَ الشام ، وزُطَّ الآجام ، ورؤوس الأكراد ، ومَرَدَة الأعراب ، وفُتّاك نهرِ بَطّ ، ولصوص القُفْص[4] » .

---

(١) جحظت عينه تتأت . وسدر تحير واضطرب . وانبهر .

(٢) الأثرة اسم مصدر من آثر يؤثر إيثاراً .

(٣) رواها صاحب عيون الأخبار : ولا تدمن الأكل إدمان النعاج ح ٣ ص ٢١٧ و كذا في العقد الفريد .

(٤) الزواقيل : اللصوص . والزط قيل هم جيل من الهند ولعلهم الذين نسميهم اليوم « النور » والبوهيميين . نهر بط : لم يذكر ياقوت موضعاً بهذا الاسم ولكنه ذكر نهر بطاطيا وفي اللسان : نهربط معروف . القفص : جيل من الناس متلصصون بنواحي كرمان (شرح القاموس) .

الخاصة الثالثة :

تكثر في كلام الجاحظ التعابير التي تثير في الذهن صوراً فنية ، حقيقية أو مجازية ، تكون أحياناً للهزل والإضحاك ، وأحياناً لتفيد حسن الأداء أو جمال التعبير ومن ذلك قوله : ركبني النوم — النفقة الموجعة — نظر إليه نظر الجمل الصؤول — وقوله في وصف الثريدة بعد أن أغار عليها الطفيلي وابنه « فلما أن نظر ثمامة إلى الثريدة مكشوفة القناع ، مسلوبة عارية ... » وقوله حكاية عن بخيل لم ينج من طمع الناس في ماله (ص ٩٧) : « ... ما أخوفني أن يكون الله في سمائه قد قصد إلي أن يفقرني » .

على أن لجوء الجاحظ إلى طريقة التعبير المباشر أعني طريقة الحقيقة أكثر من لجوئه إلى استعمال الأخيلة والمجازات والاستعارات .

الخاصة الرابعة :

وأخيراً فإن أبا عثمان فنان سليم الذوق يتجنب تكرار الألفاظ لما ينشأ عنه من السآمة والملل فيتفنن في التعبير وينوع أساليب الكلام فمن ذلك قوله (ص ١١١) :

« وكانا يتشهيان الغرائب ويقترحان الطرائف ويكلفان الناس المؤن الثقال ويمتحنان ماعندهم بالكلف الشداد » وقوله (ص ١٤٨) : « وقد ذكرنا رسالة سهل بن هارون ، ومذهب الخرامي ، وقصص الكندي ، وأحاديث الحارثي واحتجاجاتهم ، وطرائف نحلهم ، وبدائع حيلهم » وقوله (ص ١٩٧):

« .. ولقد أكلته جميعاً فما هضمه إلا الضحك والنشاط والسرور فيما أظن » وقوله على لسان بخيل كان الجاحظ لامه على بخله بالطعام (ص ١٠١) :

« ... فإن كان لابد من المؤاكلة ، ولا بد من المشاركة فمع من لا يستأثر

على بالمخ ، ولا ينتهر بيضة البُقيْلة[١] ، ولا يلتهم كبد الدَّجاجة ، ولا يبادر إلى دماغ رأس السلاءة[٢] ، ولا يختطف كُلية الجدي ، ولا يزدرد قانصة[٣] الكركي ولا ينتزع شاكلة[٤] الحمل ، ولا يقطع سُرَّة الشصر[٥] ولا يعرض العيون والرؤوس ، ولا يستولي على صدور الدَّجاج ، ولا يسابق الى اسقاط الفراخ ولا يتطاول إلى مابين يديه ... وكيف تصلح الدنيا مع من إذا رأى جَزُورِيَّة[٦] النقط الأكباد ، والأسنمة ؛ وإذا عاين بَقَرِيَّة استولى على العَرَق والقَطِنة[٧] ؛ وإن أتوا بشواء اكتسح كل شيء عليه لايرحم ذا سن لضعفه ولا يرق على حَدَث لحدة شهوته ولا ينظر للعيال ولا يبالي كيف دارت بهم الحال . »

وطريقة الجاحظ هذه ليست من قبيل تكرار المعنى مع تنويع التعبير وانما هو تفنن أيضاً في تقليب الفكرة على وجوه شتى ومحاولتها من نواح مختلفة وإن كانت متقاربة وهذا الضرب من التفنن في المعاني ، والتعبير عامٌّ في سائر آثاره الأدبية .

* * *

هذه هي الخصائص التي يتميز بها أسلوب الجاحظ في قصصه على الخصوص وإذا أضفناها إلى ماتقدم من الخصائص الأخرى المتعلقة بمواضيع قصصه

---

(١) يظهر أن البيضة أنفس مافي هذا الطعام « البقيلة » .

(٢) السلاءة واحدة السلاء كقراء طائر اغبر طويل الرجلين « شرح القاموس » .

(٣) القانصة للطير كالمصارين أو كالمعدة للإنسان أو هي حوصلته .

(٤) الشاكلة الخاصرة .

(٥) الشصر من الظباء الذي بلغ أن يطعن (لسان) .

(٦) الجزور الناقة التي تجزر أي تنحر او اسم يقع على الذكر والأنثى .

(٧) القطنة . في الأساس للزمخشري « هي الرمانة ذات الأطباق التي تكون مع الكرش يقال لها لقاطة الحصى » فعلها جزء من الامعاء الغليظة .

وطريقته فيها عرفنا الأسس التي يقوم عليها فن الجاحظ القصصي وقد استعنا لتعرف فنه هذا ببعض تصريحاته التي يستدل منها على كل حال أن الرجل اختط لنفسه قواعدَ وأصولاً سار عليها في قصصه وإن لم تكن تلك التصريحات كاملة مستوفاة إذ كان ذكرها عَرَضاً لاقصداً .

وإن الذي يجيز لنا أن نثبت للجاحظ فناً في قصصه على اختلاف مصادرها ورواتبها هو مانراه فيها من وجود روح عامة تسودها وطريقة مشتركة تسير عليها ومهما كان أصل هذه القصص والأخبار فإن أبا عثمان انتقى منها ماوافق مزاجه وطريقته ثم صبها في قالب شخصي وطبعها بطابعه حتى خرجت وعليها مما تركت يد الفنان أثر ظاهر .

الخلاصة

وإذا أردنا أن نوجز عمل الجاحظ في هذا الموضوع وفنه قلنا : إنه استقى قصصه من منهل الحياة وعرض علينا من ذلك المسرح الواسع مشاهد وحوادث انتقاها من بيئات خاصة ، وانتخب أبطالها من طبقات معينة من مدينة بغداد في عصره ، وسلك فيها مسلك التصوير الدقيق للبيئات والأوضاع والأشكال ، وهي في الغالب بيئات مضحكة وأوضاع هزلية ، ولكنها — على مايبدو منها من تصوير للظواهر الحسية — غنية بما فيها من تحليل لدخائل النفوس وتصوير لمختلف العواطف والمشاعر التي تجيش بها الصدور في شتى المواقف والظروف ؛ وتظاهر في هذا التصوير بالوقوف موقف المصور الناقل ، مجرد القصة عن رأيه الشخصي فيما يعرضه من أخلاق وعادات ، اللهم إلا مايبديه أحياناً من وراء سخريته وابتساماته من نقد خفي ؛ وصاغ تلك الصور والمشاهد في أسلوب فنيّ واقعيّ ، يتلون حسب الظروف وأحوال المتكلمين ، غنيٍّ بمفرداته ، دقيق في دلالته ، واضح في معانيه ، ملئ بالصور البديعة ، هزليّ في لهجته وروحه . أفما يحق لنا بعد هذا أن نرى في الجاحظ فناناً مبتكراً وعبقرياً مبدعاً قل من يَفري فَريه ؟

قيمة كتاب البخلاء
في تاريخ الأدب

أدب الطبائع

يهمنا أن نبين في ختام البحث قيمة كتاب البخلاء ومكانه في تاريخ الأدب العربي دون أن نكتفي ببيان قيمة الكتاب في ذاته منفصلاً عن النتاج الأدبي العام .

موضوع الكتاب الأصلي هو البخل ، والبخل إحدى الصفات التي يتصف بها بعض الناس كما يتصف بعضهم بالكرم ؛ والكرم والبخل ومثلها الجرأة والشجاعة ، والخوف وعلو الهمة ، والذكاء والبلادة ، والفطنة والحماقة ، والظرف والخفة ، والغلاظة وغيرها من الصفات النفسية الكثيرة يمكن أن تكون موضوعاً للآثار الأدبية قصةً كانت أو خبراً أو رواية أو بحثاً أو غير ذلك وقد صنف الفرنجة الآثار الأدبية التي تعالج هذه المواضيع في فن واحد سموه أدب الطبائع أو أدب السجايا Littérature De caractére وعنوا بدراسته من النواحي النفسية والاجتماعية والأدبية .

وكتاب البخلاء أول كتاب - فيما نعلم - جعل مؤلفه موضوعه قاصراً على تصوير صفة واحدة من الصفات التي قد يتصف بها الإنسان أعني البخل صورها في شكلها النفسي الداخلي وفي مظاهرها المادية الخارجية . غير أن ابن النديم في الفهرست (ص ١٧٣ طبعة المكتبة التجارية) وياقوتاً في معجم الأدباء (ج ٥ ص ٢٦٨) ذكرا كتاب الأجواد لعلي بن عبيدة الريحاني المتوفى سنة ٢١٥ والمعاصر للجاحظ ويظهر أن بينه وبين الجاحظ تشابهاً في

الثقافة وكان الأدباء يقارنون بينهما فقد قال عنه ياقوت : « أحد البلغاء الفصحاء من الناس من يفضله على الجاحظ في البلاغة وحسن التصنيف وكان له اختصاص بالمأمون ويسلك في تأليفاته وتصنيفاته طريقة الحكمة وكان يرمى بالزندقة » فهل ألّف الريحاني كتاب الأجواد قبل أن يؤلف الجاحظ كتاب البخلاء ثم احتذى الجاحظ حذوه فألّف كتابه في البخلاء كما ألف هو في الأجواد ؟ من الصعب أن نفصل في هذه القضية قبل أن نعرف تاريخ تأليف الكتابين ونوع العلاقة بين الكاتبين ، إن كنا نظن أن كتاب البخلاء ألّفه مؤلفه في أواخر حياته (انظر ص ١٩٥ من الكتاب) أي قريباً من سنة ٢٥٥ ونعلم أن كتاب الأجواد أُلّف قبل سنة ٢١٥ ولكننا لا نعلم إن كان الجاحظ بدأ بتأليفه قبل هذا التاريخ ثم أتمه في آخر حياته ولا ندري إن كان هناك علاقة وصلة بين الكاتبين ولم يتسع لنا الوقت في هذه العجالة للتحقيق في هذه المسألة .

وإن شهرة كتاب البخلاء تحملنا على الظن أنه هو الذي كان له الأثر فيما ألف في مثل هذه المواضيع من بعده فقد ألف كثيرون من الأدباء بعد الجاحظ في هذا الفن الأدبي الذي سميناه أدب الطبائع مقلدين له أو متأثرين به على ما يظهر ومن هذا النوع من الآثار : كتاب التطفيل وحكايات الطفيليين وأخبارهم للخطيب البغدادي المتوفى سنة ٤٦٣ هـ وكتاب الكرماء للحسن العسكري ، والظرف والظرفاء لمحمد بن أحمد الوشاء المتوفى سنه ٣٢٥ وعقلاء المجانين للحسن بن محمد بن حبيب النيسابوري المتوفى سنة ٤٠٦ والحمق والمغفلين ، وأخبار الظرفاء والمتماجنين والأذكياء ، وكلها لابن الجوزي المتوفى سنة ٥٩٧ وكتاب الثقلاء لمحمد بن خلف بن المرزبان المتوفى سنة ٣٠٩[1]

---

(١) ذكره أحمد تيمور باشا في نوادر المخطوطات وذكره ابن النديم في الفهرست ص ٢١٣ وياقوت في معجم الأدباء ج ٥ ص ٧٣ وسائر ما ذكرناه من الكتب سواه مطبوع .

وكتاب الثقلاء أيضاً لمحمد بن إسحاق الصيمري (ذكره ياقوت في معجم الأدباء ج ٦ ص ٤٠٣) وغُرر الخصائص الواضحه وعُرر النقائص الفاضحة للوطواط المتوفى سنه ٧١٨ هـ [1] وليست بغيتنا ههنا الاستقصاء فأمثال هذه الكتب كثيرة والأدب العربي غني بهذا الأدب النفسي وفي أكثر الكتب والموسوعات الأدبيه كالعقد الفريد لابن عبدربه وعيون الأخبار لابن قتيبة أبواب خاصة بالطبائع والأخلاق فيجدر بالباحثين ضم هذه الآثار بعضها إلى بعض ودراستها دراسة عامة بحيث يخرج منها بحث كامل في الأدب النفسي أو أدب الطبائع والسجايا في الأدب العربي فللجاحظ على كل حال فضل كبير في السبق إلى الكتابة في هذا النوع من الأدب النفسي أو أدب السجايا من حيث موضوعُ كتابه وإلى التأليف في فن أدبي جديد هو فن القصة من حيث الشكل الأدبي الذي صاغ فيه كتابه الفني الطريف؛ كتاب البخلاء .

---

(٢) لابد لنا أن نذكر اننا استفدنا بعض ما ذكرناه هنا من الآثار الأدبية من الفهرس القيم الذي وضعه صديقنا الأستاذ يوسف العش .

لو خرجت من جلدك لم اعرفك

ومن أعاجيب أهل مَرْو ما سمعناه من مشايخنا على وجه الدهر[1]: وذلك أن رجلاً من أهل مَرْو كان لا يزال يحج ويتجر وينزل على رجل من أهل العراق فيكرمه ويكفيه مؤونته، ثم كان كثيراً ما يقول لذلك العراقيّ: ليت أني قد رأيتك بمرْو حتى أكافئك لقديم إحسانك وما تجدد لي من البرّ في كل قَدْمة، فأما ههنا فقد أغناك الله عني! قال: فعرَضتْ لذلك العراقي بعد دهر طويل حاجة في تلك الناحية، فكان مما هوّن عليه مكابدةَ السفر ووحشة الاغتراب، مكانُ المروزيّ هناك. فلما قدم مضى نحوه في ثياب سفره وفي عمامته وقلنسوته وكسائه ليحط رحله عنده، كما يصنع الرجل بثقته وموضع أنسه؛ فلما وجده قاعداً في أصحابه أكب عليه وعانقه، فلم يره أثبتَه ولا سأل به سؤال من رآه قط! قال العراقي في نفسه: لعل انكاره إياي لمكان القناع. فرمى بقناعه وابتدأ مسألته، فكان له أنكر! فقال: لعله أن يكون إنما أُتي من قبل العمامة. فنزعها ثم انتسب وجدد

(١) أي قديماً

مسألته فوجده أشد ما كان إنكاراً . قال فلعله إنما أتى من قبل القلنسوة . وعلم المروزوي أنه لم يبق شيء يتعلق به المتغافل والمتجاهل قال : لو خرجت من جلدك لم أعرفك .

***

وحدثني إبراهيم بن السندي قال : كان على ربع «الشاذروان [١]» شيخ لنا من أهل خراسان ، و كان مصححاً [٢] ، بعيداً من الفساد ، ومن الرِّشا [٣] ، ومن الحكم بالهوى ، و كان حفياً [٤] جداً ، و كذلك كان في امساكه ، وفي بخله ، وتدنيقه [٥] في نفقاته ، و كان لا يأكل إلا ما لابدّ منه ، ولا يشرب إلا ما لا بد له منه ، غير أنه إذا كان في غداة كل جمعة ، حمل معه منديلاً فيه جردقتان [٦] ، وقطع لحم سكباج [٧] مبرَّد ، وقطع جبن ، وزيتونات وصرة فيها ملح ، وأخرى فيها أشنان [٨] ، وأربع بيضات ليس منها بد ، ومعه خلال ومضى وحده حتى يدخل بعض بساتين الكرخ [٩] ، وطلب موضعاً تحت شجرة

---

(١) الربع المنزل والمحلة يريد به هنا حيا من أحياء بغداد كان للشيخ نوع رياسة فيه (٢) ثقة عدلاً (٣) الرشا بالضم والكسر جمع رشوة مثلثة الراء .
(٤) المدقق المستقصي (٥) التدنيق التقتير مأخوذ من الدانق وهو سدس الدرهم
(٦) الجردقة الرغيف معربة (٧) لحم مصنوع بخل وتوابل (٨) الأشنان نبات يجفف ويدق تغسل به الايدي والعهد باستعماله في بلادنا غير بعيد (٩) محلة ببغداد

وسط خضرة ، وعلى ماء جار ؛ فإذا وجد ذلك ، جلس ، وبسط بين يديه المنديل ، وأكل من هذا مرة ، ومن هذا مرة ؛ فإن وجد قيّم ذلك البستان رمى إليه بدرهم ، ثم قال : اشتر لي بهذا ، أو أعطني بهذا رُطَبًا - إن كان في زمان الرطب - أو عنبًا - إن كان في زمان العنب - ويقول له : إياكَ إياكَ أن تحابيني ولكن تجوّدْ لي فإنك إن فعلت لم آكله ، ولم أعد إليك واحذر الغَبْن ؛ فإن المغبون لا محمود ولا مأجور . فإن أتاه به أكل كل شيء معه ، وكل شيء أتى به ، ثم تخلل ، وغسل يديه ثم يمشي مقدار مئة خطوة ، ثم يضم جنبه فينام إلى وقت الجمعة ثم ينتبه فيغتسل ويمضي إلى المسجد . هذا كان دأبه في كل جمعة

قال ابراهيم : فبينا هو يوماً من أيامه يأكل في بعض المواضع إذ مر به رجل فسلم عليه ، فرد السلام ثم قال : هلم عافاك الله . فلما نظر إلى الرجل قد انثنى راجعاً يريد أن يطفِر الجدول أو يعدي[1] النهر قال له : مكانك ! فان العجلة من عمل الشيطان فوقف الرجل ، فأقبل عليه الخراساني وقال : تريد ماذا ؟ قال : أريد أن أتغدّى ! قال : ولم ذلك ؟ وكيف طمعت في هذا ؟ ومن أباح لك مالي ؟ قال الرجل : أو ليس قد دعوتني ؟ قال : ويلك ! لو ظننت

(١) يعدي النهر اجتازه .

أنك هكذا أحمق ما رددت عليك السلام ! الأمر الذي نحن فيه أن تكون إذا كنت أنا الجالس ، وأنت المار ، تبدأ أنت فتسلم ، فأقول أنا حينئذ مجيباً لك : وعليك السلام ، فإن كنت لا آكل شيئاً سكت أنا وسكت أنت ومضيت أنت وقعدت أنا على حالي . وإن كنت آكل ، فهاهنا بيان آخر : وهو أن أبدأ أنا فأقول : هلمّ وتجيب أنت فتقول : هنيئاً ؛ فيكون كلام بكلام ! فأما كلام بفعال [1] ، وقول بأكل فهذا ليس من الإنصاف ! وهذا يخرج علينا فضلاً كبيراً ! قال : فورد على الرجل شيءٌ لم يكن في حسابه ، فشهر بذلك في تلك الناحية ، وقيل له : قد أعفيناك من السلام ومن تكلف الرد . قال : ما بي إلى ذلك حاجة ، إنما هو أن أعفي أنا نفسي من (هلمّ) وقد استقام الأمر !

***

وكان جبل [2] قد خرج من موضع كان فيه فخاف الطائف [3]

---

(١) الفعال بالفتح الحسن أو يطلق على الخير والشر وبالكسر يقتضي المشاركة والمرجح هنا الكسر . (٢) جبل اسم علم لرجل (٣) الطائف المتحول ليلاً ويراد بها هنا الخارج ليلاً لسلب الناس وإيذائهم لا العسس كما فسرت في طبعتي الكتاب .

ولم يأمن من المستقفي [١]، فقال لو دققت الباب على أبي مازن، فبت عنده في أدنى بيت [٢]، أو في دهليزه، ولم ألزمه من مؤونتي شيئاً، حتى إذا انصدع عمود الصبح، خرجت في أوائل المدلجين [٣] فدق عليه الباب دقّ واثق، ودق مدل [٤] ودق من يخاف أن يدركه الطائف، أو يقفوه المستقفي، وفي قلبه عز الكفاية، والثقة بإسقاط المؤونة، فلم يشك أبو مازن أنه دق صاحب هدية! فنزل سريعاً، فلما فتح الباب وبَصُر بجبل، بصر بملك الموت! فلما رآه جبل واجماً لا يحير كلمة قال له: إني خفت معرّة [٥] الطائف وعجلة المستقفي، فملت إليك لأبيت عندك! فتساكر أبو مازن، وأراه أن وجومه إنما كان بسبب السكر، فخلع جوارحه، وخبل لسانه، وقال: سكران والله، أنا والله سكران! قال له جبل: كن كيف شئت، نحن في أيام الفصل لا شتاء ولا صيف، ولست أحتاج إلى سطح فأغمّ عيالك بالحر، ولست احتاج إلى لحاف فأكلفك أن تؤثرني بالدثار، وأنا كما ترى ثمل من الشراب، شبعانُ من الطعام، ومن منزل فلان خرجت، وهو

---

(١) المستقفي هنا من يقتفي آثار الناس لسلبهم (٢) أي في أقرب غرفة من الباب (٣) الإدلاج السير في الليل (٤) يقال أدل عليه وتدلل إذا وثق بمحبته وتبسط في صحبته. (٥) المعرة الأذى والإساءة

أخصب الناس دَخلاً ، وإنما أريد أن تدعني أغني في دهليزك إغفاءةً واحدةً ، ثم أقوم في أوائل المبكرين . قال أبو مازن — وأرخى عينيه وفكيه ولسانه — ثم قال : سكران والله ، أنا سكران ، لا والله ما أعقل أين أنا ، والله إن [1] أفهم ما تقول . ثم أغلق الباب في وجهه ، ودخل لا يشك أن عذره قد وضح ، وأنه قد ألطف النظر حتى وقع على هذه الحيلة .

من وصية بخيل لابنه يوم موته

إني لما غلبتني شهوتي ، وأخرجت يوماً درهماً لقضاء وطري ووقعت عيني على سكته [2] ، وعلى اسم الله المكتوب عليه ، قلت في نفسي : إني إذن لمن الخاسرين الضالين ، لئن أنا أخرجت من يدي ومن بيتي شيئاً عليه لا إله إلا الله ، أخذت بدلاً عنه شيئاً ليس عليه شيء ! والله إن المؤمن لينزع خاتمه للأمر يريده ، وعليه « حسبي الله » أو « توكلت على الله » فيظن أنه قد خرج من كنف الله جل ذكره ، حتى يرد الخاتم في موضعه ، وإنما هو خاتم واحد ، وأنا أريد أن أخرج في كل يوم درهماً عليه الإسلام كما هو ! إن هذا لعظيم !

---

(١) إن ههنا نافية وكثيراً ما يستعملها الجاحظ كذلك (٢) أي نقشه

وكنا مرة في موضع حشمة [١] وفي جماعة كثيرة ، والقوم سكوت ، والمجلس كبير ، وهو [٢] بعيد المكان مني ، وأقبل علي المكي وقال - والقوم يسمعون - فقال : يا أبا عثمان ! من أبخل أصحابنا ؟ قلت : أبو الهذيل ! قال : ثم من ؟ قلت : صاحب لنا لا أسميه ، قال الحزامي من بعيد : إنما يعنيني ! ثم قال : حسدتم للمقتصدين تدبيرهم ، ونماء أموالهم ، ودوام نعمتهم ، فالتمستم تهجينهم بهذا اللقب ، وأدخلتم المكر عليهم بهذا النبز [٣] ! تظلمون المتلف لماله باسم الجود إدارة له عن شينه [٤] ، وتظلمون المصلح لماله باسم البخل ، حسداً منكم لنعمته ؛ فلا المفسد ينجو ولا المصلح يسلم .

اختطاف اللقم

أكل علي الإسواري مع عيسى بن سليمان بن علي ، فوضعت قدامهم سمكة عجيبة فائقة السمن ؛ فحاط بطنها لحظه ، فإذا هو يكتنز شحماً ! وقد كان غص بلقمة ، وهو لمستسقٍ ، ففرغ من الشراب وقد غرف من بطنها كل إنسان منهم بلقمته غرفةً ، وكان عيسى

---

(١) أي في مجلس وقار (٢) الكلام عن الحزامي وراوي القصة هو الجاحظ نفسه (٣) نبزه ينبزه لمزه ولقبه بلقب يعيره به والمصدر النبز والاسم النبر بالتحريك (٤) الشين العيب والعار . يقول انكم تصفونهم بالجود حتى تصرفوهم عن الانتباه إلى ما يشينهم من الإسراف .

ينتخب الأكلة ، ويختار منهم كل منهوم فيه ؛ ومفتون به ، فلما خاف علي الإسواري الإخفاق ، وأشفق من الفوت - وكان أقربهم إليه عيسى - استلب من يده اللقمة باسرع من خطفة البازي ، وانكدار[1] العقاب ، من غير أن يكون أكل عنده قبل مرته ! فقيل له : ويحك ! استلبت لقمة الأمير من يده ، وقد رفعها إليه ، وشحا[2] لها فاه ، من غير مؤانسة ولا ممازحة سابقة ؟! قال : لم يكن الأمر كذلك - وكذب من قال ذلك - ولكنا أهوينا أيدينا معاً ، فوقعت يدي في مقدم الشحمة ، ووقعت يده في مؤخر الشحمة معاً ، والشحم ملتبس بالأمعاء ، فلما رفعنا أيدينا معاً كنت أنا أسرع حركة ، وكانت الامعاء متصلة غير متباينة ، فتحول كل شيء كان في لقمته بتلك الجذبة إلى لقمتي لاتصال الجنس بالجنس والجوهر بالجوهر .

---

(١) انقضاض (٢) تعبير دقيق يفيد فتح الفم لتناول اللقمة .

وصف نهم أكول

وكان إذا أكل ذهب عقله ، وجحظت [1] عينه ، وسكر وسدِر [2] وانبهر [3] ، وتربد [4] وجهه وغضب ، ولم يسمع ، ولم يبصر ؛ فلما رأيت ما يعتريه ، وما يعتري الطعام منه ، صرت لا آذن له إلا ونحن نأكل التمر والجوز والباقلى [5] ، ولم يفجأني قطُّ وأنا آكل تمراً إلا استفه سفاً ، وحساه حسواً ، وذرا به ذروا ، ولا وجده كثيراً إلا تناول القصعة كجمجمة الثور ، ثم يأخذ بحضنيها ، ويُقلها [6] من الارض ، ثم لا يزال ينهشها طولا وعرضاً ، ورفعاً وخفضاً ، حتى يأتي عليها جميعاً . ثم لا يقع غضبه إلا على الأنصاف والأثلاث [7] ولم يفصل تمرة قطُّ من تمرة ، وكان صاحب جُمَل ، ولم يكن يرضى بالتفاريق ولا رمى بنواة قط ، ولا نزع قمعاً ، ولا نفى عنه قشراً ، ولا

---

(١) نتأت (٢) تحير حتى لا يكاد يعقل (٣) ضاق نفسه من الاعياء (٤) تغير (٥) أي الفول (٦) في الأصل : بحِضْنَيها ويُقِلها أي يأخذ بجانبيها ويحملها ، ويمكن أن تكون بحَضْنها ونَقْلها (٧) في الأصل الإتلاف وقد صححت في الطبعة الدمشقية وأثبتها شراح الطبعة المصرية على حالها وشرحوها شرحاً غير مقبول ولم نهتد إلى وجه الصواب في شرحها

فتشه مخافة السوس والدود ، ثم مارأيته قط إلا وكأنه طالب ثأر ، وشحشحان [١] صاحب طائلة [٢] ، وكأنه عاشق مغتلم [٣] ، أو جائع مقرور [٤] !

الشبوطة

واشترى محمد بن أبي المؤمل مرة شبوطة [٥] وهو ببغداد ؛ وأخذها فائقة عظيمة ، وغالى بها ، وارتفع في ثمنها ، وكان قد بُعدَ عهده بأكل السمك وهو بصريٌّ لا يصبر عنه - فكان قد أكبر أمر هذه السمكة ، لكثرة ثمنها . ولسمنها وعظمها ، ولشدة شهوته لها ، فحين ظن عند نفسه أنه قد خلا بها ، وتفرّد بأطايبها ، وحسر عن ذراعيه ، وصمَدَ صمدها [٦] ، هجمت عليه ومعي السدريّ ، فلما رآه رأى الموت الأحمر ، والطاعون الجارف ، ورأى الحتم المقضيّ ، ورأى قاصمة الظهر وأيقن بالشر وعلم أنه قد ابتُلي بالثنين [٧] ، فلم يلبثه السدري حتى قوّر [٨] السرة

---

(١) الشحشحان هنا الغيور ومن معانيها الشجاع والبخيل (٢) الثأر (٣) الغُلْمة والاغتلام شدة الشهوة وغلبتها (٤) من القُرّ وهو البرد (٥) ضرب من السمك رقيق الذنب عريض الوسط صغير الرأس (٦) قصد قصدها (٧) الثعبان العظيم (٨) أخذ أوساطها .

بالمبال ، فأقبل علي فقال لي : يا أبا عثمان ! السدريّ يعجبه السرّ فما فصلت الكلمة من فيه حتى قبض على القفا ، فانتزع الجانبين جميعاً ؛ فأقبل عليّ فقال : والسدري يعجبه الاقفاء ! فما فرغ من كلامه إلا والسدريّ قد اجترف المتن كله ، فقال : يا أبا عثمان ! والسدري يعجبه المتون ، ولم يظن أن السدري يعرف فضيلة ذنب الشبوط ، وعذوبة لحمه ، وظن أنه سيسلم له ، وظن معرفة ذلك من الغامض ، فلم يدر إلا والسدري قد اكتسح ماعلى الوجهين جميعاً ؛ ولولا أن السدري أبطره [1] وأثقله ، وأكمده وملأ صدره ، وملأه غيظاً ، لقد كان أدرك معه طرفاً ، لأنه كان من الأكلة ، ولكن الغيظ كان من أعوان السدري عليه ، فلما أكل السدري جميع أطايبها ، وبقي هو في النظّارة ، ولم يبق في يده مما كان يأمله في تلك السمكة إلا الغيظ الشديد ، والغرْم الثقيل ، ظن أن في سائر السمكة [2] ما يشبعه ، ويشفي من قرمه [3] ، فبذلك كان عزاؤه ، وذلك هو الذي كان يمسك بأرماقه وحُشاشات نفسه ، فلما رأى السدري يفري الفري [4] ، ويلتهم التهاماً ، قال : يا أبا عثمان ! السدري يعجبه كل شيء ، فتولد

(١) البطَر هنا الحيرة (٢) بقيتها (٣) شهوة اللحم (٤) أصل فَرَى قطع ويقولون فلان يفري الفريّ أي يأتي بالعجائب .

الغيظ في جوفه ، وأقلقته الرِّعْدة ، فَخَبُثَت نفسه ، فما زال يقيء ويسلح ثم ركبته الحمى ، وصحت توبته ، وتم عزمه في أن لا يؤاكل رغيباً [١] أبداً ولا زهيداً [٢] ، ولا يشتري سمكة أبداً رخيصة ولا غالية ، وإن أهدوها إليه أن لا يقبلها ، وإن وجدها مطروحة لا يمسها .

***

وشرب [٣] مرة النبيذ ، وغناه المغني ، فشق قميصه من الطرب ، فقال لمولىً له يقال له « المحلول » وهو إلى جنبه : شُقَّ أيضاً أنت ويلك قميصك — والمحلول هذا من الآيات — قال : لا والله لا أشقُّه ، وليس لي غيره ! قال فشُقَّه وأنا أكسوك غداً ، قال : فأنا أشقه غداً ، فقال أنا ما أصنع بشقك له غداً ؟ قال : وأنا ما ارجو بشقه الساعة ؟ فلم أسمع بإنسان قط يقايس ويناظر في الوقت الذي إنما يشق فيه القميص من غلبة الطرب غيره وغير مولاه محلول .

***

---

(١) الرغيب الكثير الأكل (٢) القليل الأكل (٣) الكلام عن تمام ابن جعفر .

الغزّال البخيل

أخبرني زكريا القطان قال:

كان للغزّال قطعةُ أرض قُدّامَ حانوتي، فأكرى نصفها من سمّاك يسقط عنه ما استطاع من مؤنة الكراء، قال: وكان الغزال أعجوبةً في البخل، وكان يجيء من منزله ومعه رغيف في كمّه، فكان أكثر دهره يأكل بلا أُدْم، فإذا أعيى عليه[1] الأمر، أخذ من ساكنه[2] جوافة[3] بحبة[4] وأثبت عليها[5] فلساً في حسابه؛ فإذا أراد أن يتغدّى أخذ الجُوَافة فمسحها على وجه الرغيف، ثم عض عليه، وربما فتح بطن الجوافة، فيَطرُّ[6] جانبيها وبطنها باللقمة بعد اللقمة، فإذا خاف أن ينهكها ذلك[7] وينضم بطنها طلب من ذلك السمّاك شيئاً من ملح السمك فحشا جوفها لينفخها

---

(١) أعجزه وأتعبه (٢) أي مستأجر عقاره (٣) الجواف بوزن غراب ضرب من السمك (٤) الحبة جزء من ثمانية وأربعين جزءاً من الدرهم وهي من حيث وزنها $\frac{1}{48}$ من المثقال. انظر القاموس في مادة م ك ك (٥) لعلها: عليه (٦) أي يسحب اللقمة عليها ضاغطاً ومعنى طرّ في اللغة: الشد والسوق الشديد وضم الإبل بعضها إلى بعض والشق والقطع والخلس واللطم والسقوط. (٧) نهك الشيء من باب منع أضناه وأهزله واستوفى جميع ما فيه

وليوهم أن هذا هو ملحها الذي ملحت به ؛ ولربما غلبته شهوته فكدم[1] طرف أنفها ، وأخذ من طرف الأرنبة ما يسيغ به لقمته وكان ذلك منه لا يكون إلا في آخر لقمة ، ليطيّب فمه بها ، ثم يضعها في ناحية ، فإذا اشترى من امرأة غزلاً ، أدخل تلك الجوافةَ في ثمن الغزل ، من طريق إدخال العُروض[2] ، وحسبها عليها بفلس فيسترجع رأس المال ويفضل الأُدْم .

دجاجة أبي الهذيل

كان أبو الهُذَيل أهدى إلى مويس دجاجة ، وكانت دجاجته التي أهداها دون ما كان يتخذ لمويس ، ولكنه بكرمه ، وبحسن خلقه ، أظهر التعجب من سمنها ، وطيب لحمها ، وكان يعرفه بالامساك الشديد ، فقال : وكيف رأيت يا أبا عمران تلك الدّجاجةَ ؟ قال : كانت عجباً من العجب ! فيقول : وتدري ما جنسها ؟ وتدري ما سنها ؟ فإن الدجاجة تطيب بالجنس والسن ، وتدري بأي شيءٍ كنا نسمنها ؟ فلا يزال في هذا ، والآخر يضحك ضحكاً نعرفه نحن ، ولا يعرفه أبو الهذيل . وكان

---

(١) كدمه : عضه بأدنى فمه أي تناول جزءاً منه بمقدم فمه

(٢) عُروض التجارة مفردها عَرْض وتحرك وهو المتاع أو كل ما يباع .

أبو الهذيل أسلم الناس صدراً ، وأوسعهم خلقاً ، وأسهلهم سهولة ، فإن ذكروا دجاجة ، قال : أين كانت يا أبا عمران من تلك الدجاجة؟ فإن ذكروا بطة أو عناقاً [1] أو جزوراً [2] ، أو بقرة ، قال : فأين كانت هذه الجزور في الجزر من تلك الدجاجة في الدجاج؟ وإن استسمن أبو الهذيل شيئاً من الطير والبهائم ، قال : لا والله ! ولا تلك الدجاجة . وإن ذكروا عذوبة الشحم ، قال : عذوبة الشحم في البقر والبط وبطون السمك والدجاج ، ولا سيما ذلك الجنس من الدجاج . وإن ذكروا ميلاد شيء ، أو قدوم إنسان ، قال : كان ذلك بعد أن أهديتها لك بسنة ، وما كان بين قدوم فلان وبين البعثة بتلك الدجاجة إلا يوم ؛ وكانت مثلاً في كل شيء ، وتاريخاً في كل شيء .

---

(١) أنثى المعز (٢) الجزور : يطلق على الذكر والأنثى من الإبل .

ضيافة ومنع

صحبني محفوظ النقاش من مسجد[1] الجامع ليلاً ، فلما صرت قربَ منزله - وكان منزله أقرب إلى مسجد الجامع من منزلي - سألني أن أبيت عنده ، وقال : أين تذهب في هـذا المطر والبرد ؟ ومنزلي منزلك ، وأنت في ظلمة وليس معك نار وعندي لِباً لم ير الناس مثله ، وتمرٌ ناهيك به جودةً ، لا تصلح إلا له فملت معه فأبطأ ساعة ثم جاءني بجام لباً ، وطبق تمر ، فلما مددت قال : يا أبا عثمان ! إنه لِباً وغِلْظة وهو الليل ور كوده ، ثم ليلة مطر ورطوبة ، وأنت رجل قد طعنت في السن ولم تزل تشكو من الفالج طرفاً ، وما زال الغليل[2] يسرع إليك ، وأنت في الأصل لست بصاحب عشاء ، فإن أكلت اللباً ولم تبالغ ، كنت لا آكلاً ولا تاركاً ، وحرَّشْت[3] طباعك ، ثم قطعت الأكل أشهى ما كان إليك ، وإن بالغت بتنا في ليلة سوء ، من الاهتمام

---

(١) كذا في الأصل بالإضافة وهو على ما يظهر خطأ شاع من زمن قديم وتأولوا له وجهاً فقالوا هو على تقدير مسجد اليوم الجامع ونرى أنه تعسف وإضافة الصفة إلى الموصوف من التراكيب المعروفة في عاميتنا اليوم والصواب أن يقال المسجدُ الجامعُ (٢) حرارة العطش (٣) هيجت .

بأمرك ، ولم نُعِدَّ لك نبيذاً ولا عسلاً ! وإنما قلت هذا الكلام ، لئلاّ تقول غداً : كان وكان ، والله قد وقعتُ بين نابَيْ أسد لأنني لو لم أجئك به وقد ذكرته لك قلت بخل به وبدا له فيه ؛ وإن جئت به ولم أحذرك منه ، ولم أذكر كل ما عليك فيه ، قلت : لم يشفق علي ولم ينصح ، فقد برئت إليك من الأمرين جميعاً ، وإن شئت فأكلةٌ وموتة ، وإن شئت فبعض الاحتمال ، ونوم على سلامة ! فما ضحكت قطُّ كضحكي تلك الليلة ، ولقد أكلته جميعاً ، فما هضمه إلا الضحك والنشاط والسرور فيما اظن ، ولو كان معي من يفهم طيب ما تكلم به ، لأتى عليّ الضحك ، أو لقضى عليّ ، ولكن ضحك من كان وحده لا يكون على شطر[1] مشاركة الأصحاب .

---

(١) لعلها في الأصل : على شطرٍ من .

اعطى ضيفه المخدة

واستلبها منه وهو نائم

حدثني المكي قال : بت عند إسماعيل بن غزوان ، وإنما بيتني عنده حين علم أني تعشيت عند مويس ، وحملت معي قربة نبيذ ، فلما مضى من الليل أكثره وركبني النوم ، جعلت فراشي البساط ومرفقتي يدي ، وليس في البيت إلا مصلى له ، ومرفقة ، ومخدة ، فأخذ المخدة فرمى بها إليّ ، فأبيتها ورددتها عليه ، وأبى وأبيت ، فقال : سبحان الله ! يكون أن تتوسد مرفقك ، وعندي فضل مخدة ، فأخذتها فوضعتها تحت خدي ، فمنعني من النوم إنكاري للموضع ، ويبس فراشي ، وظن أني قد نمت فجاء قليلاً قليلاً ، حتى سل المخدة من تحت رأسي ، فلما رأيته قد مضى بها ضحكت وقلت : قد كنتُ عن هذا غنياً ! قال : إنما جئت لأسوّيَ رأسك ، قلت : إني لم أكلمك حتى وليت بها ! قال : كنت لهذا جئت ، فلما صارت المخدة في يدي ، نسيت ما جئت له ، والنبيذ — ما علمتَ والله — يذهبُ بالحفظ أجمع .

أخلاق أبي سعيد

وكان أبو سعيد مع شدة بخله، أشد الناس نفساً، وأحماهم أنفاً، بلغ من أمره في ذلك؛ ومن بلوغه فيه، أنه أتى رجلاً من ثقيف يقتضيه ألفَ دينار، وقد حلّ عليه المالُ، فكان ربما أطال عنده الجلوس، فيحضر عنده الغداء فيتغدى معه، وهو في ذلك يقتضيه[1]، فلما طال عليه المَطْل؛ قال له يوماً وهو على خوانه: إن لهذا المال زكاةً مؤداة، وقد علمنا أنا حين أخرجنا هذا المال من أيدينا أنه معرض للذهاب، وللمنازعة الطويلة، ولأن يقع في الميراث، ثم رضينا منك بالربح اليسير بالذي ظنناه بك من حسن القضاء، ولولا ذلك لم نرض بهذا المال، وهذا المال إذا كان شرطه أن يرجع بعد سنة، فرفّهتُ عنك بحسن المطالبة شهراً أو شهرين ثم مكث عندي إلى أن أصبت له مثلك شهراً او شهرين، سُحق فضله وخرجَ علينا فضل، ومثلك يكتفي بالقليل، وقد طال اقتضائي، وطال تغافلك! يقول هذا الكلام، وهو في ذلك لا يقطع الأكل؛ فأقبل عليه رجل

---

(١) أي انه يطالبه بالدين أثناء الغداء

من ثقيف ، فعرّض له بأنه لو أراد التقاضي محضاً ، لكان ذلك في المسجد ولم يكن في الموضع الذي يحضر فيه الغداء ، فقطع الأكل ، ثم نزا في وجهه الدم ، ونظر إليه نظر الجمل الصؤول ، ثم كاد يطير ، ثم أقبل عليه فقال : لا أم لك ! أنا إنما اصطبغت [١] من دن خل ، حتى فني من حسن العقل [٢] ، وأحببت الغنى بفضل بغضي للفقر ، وأبغضت الفقر بفضل أنفتي من احتمال الذل ! تعرض لي - لا أم لك - بأني رَغِبٌ في غدائه ؟ ! والله ما أكلت معه إلا ليستحي من حُرْمة المؤاكلة وليصير كرمه سبباً لتعجيل الحاجة ! ثم نهض بالصك [٣] وعليه طينته [٤] فاعترض بها الحائط حتى كسرها ، ثم نفل في الكتاب ، وحك بعضه ببعض ، ثم مزقه ورمى به ، ثم قال لكل من شهد المجلس : هذه ألف دينار كانت لي على أبي فلان ، اشهدوا جميعاً أني قبضت

---

(١) صبغ يده بالماء غمسها والاصطباغ الائتدام (٢) يقول انني اكتفيت بالاصطباغ بالخل استغناء عن الناس وتعففاً وذلك من حسن عقلي . (٣) الوثيقة التي ثبت بها دينه (٤) كانت العادة أن تختم الكتب والصكوك بالطين كما تختم اليوم بالشمع ومنه قولهم طينة خير من ظنة (انظرها في رسالة سهل بن هرون في أول كتاب البخلاء ص ١٩)

منه ، وأنه برئ من كل شيء أطالبه ! ثم نهض ، فلما صنع ما صنع أقبل الغريم على صاحبه فقال : ما دعاك إلى هذا الكلام ؟ لِمَ تقول هذا لرجلٍ على مائدتي ، وتُقدِم بهذا الكلام على من لا تعرف كيف موقع الأمور منه ؟ وبعد فقد والله أردتُ مَطْله إلى أن أبيع الثمر ، ورجونا حلاوته ، فقد أحسنت إليه وأسأت إلينا وعجلت عليه ماله ! اذهب يا غلام فاضرب بذلك الثمر السوق ، فبعه بما بلغ . فأخذ ماله كَمَلا[1] ، ثم ركب إليه ، فأبى أن يأخذه ، فلما كثر الأمر في ذلك قال : أظن الذي دعا صاحبك إلى ما قال ، أنه عربيّ ، وأنا مولى ! فإن جعلت شفعاءك من الموالي ، أخذت هذا المال ، وإن لم تفعل ، فإني لا آخذه ! فجمع الثقفي كل شعوبي بالبصرة حتى طلبوا إليه ، حتى أخذ المال .

***

قال أبو محمد العروضي : وقعت بين قوم عربدة ؛ فقام المغني يحجز بينهم — وكان شيخاً معيلاً[2] بخيلاً — فمسك رجل بحلقه ، فعصره ، فصاح : معيشتي ! معيشتي ! فتبسم وتركه !

---

(١) أي كاملاً (٢) كثير العيال .

اسماعيل بن غزوان والشيخ

قال المكي : دخل اسماعيل بن غزوان إلى بعض المساجد يصلي ، فوجد الصف تاماً فلم يستطع أن يقف وحده ، فجذب ثوب شيخ في الصف ليتأخر فيقوم معه ، فلما تأخر الشيخ رأى اسماعيل الفرج [1] تقدم ، فقام في موضع الشيخ وترك الشيخ قائماً خلفه ينظر في قفاه ، ويدعو الله عليه !

تيه المغنين

وحدثني ابن أبي كريمة قال : وهبوا للكناني المغني خابية فارغة ، فلما كان عند انصرافه ، وضعوها له على الباب ، فلم يكن عنده كراء حملها ، وأدركه مايدرك المغنين من التيه ، فلم يحملها ، فكان يركلها ركلة فتدحرجُ وتدور بمبلغ حمية الرَّكْلة ، ويقوم من ناحية كي لا يراه إنسان ويرى ما يصنع ثم يدنو منها ثم يركلها أخرى فتدحرج وتدور ، ويقف من ناحيه ، فلم يزل يفعل ذلك إلى أن بلغ بها المنزل .

---

(١) لعلها الفُرجَة

شجار في سفينة

وقال رمضان : كنت مع شيخ أهوازيّ في جعفرية[1] ، وكنت في الذنب وكان في الصدر ، فلما جاء وقت الغداء ، أخرج من سلة له دجاجةً وفرخاً واحداً مبرداً ، وأقبل يأكل ويتحدث ولا يعرض عليّ ، وليس في السفينة غيري وغيره ، فرآني أنظر إليه مرة ، وإلى ما بين يديه مرة ، فتوهم أني أشتهيه وأستطيبه[2] ، فقال لي : لم تحدّق النظر ؟ من كان عنده[3] أكل مثلي ، ومن لم يكن عنده نظر مثلك ؟ ثم نظر إليّ وأنا أنظر إليه ، فقال ، يا هناه[4] ! أنا رجل حسن الأكل لا آكل إلا طيب الطعام ، وأنا أخاف أن تكون عينك مالحة ؛ وعينُ مثلك سريعة فاصرف عني وجهك ، قال : فوثبت عليه فقبضت على لحيته بيدي اليسرى ، ثم تناولت الدجاجة بيدي اليمنى ، فما زلت أضرب بها رأسه حتى تقطعت في يدي . ثم تحول إلى مكاني

---

(١) الجعفر : النهر ، والجعفرية ضرب من السفن الصغيرة النهرية

(٢) في الاصل استبطئه وصوابها كما يظهر : استطيبه (٣) اسم كان محذوفاً والتقدير من كان عنده (أكلٌ) أكلَ .. (٤) أصلها يا هَنُ في معنى قولنا يا هذا ! يا فلان !

فمسح وجهه ولحيته ، ثم أقبل علي فقال : قد أخبرتك أن عينك مالحة ، وأنك ستصيبني بعين ! قلت : وما شبه هذا من العين ؟ قال : إنما العين مكروه يحدث ، فقد أنزلت بنا عينك أعظم المكروه ! فضحكت ضحكاً ما ضحكت مثله ، وتكالمنا حتى كأنه لم يقل قبيحاً ، وحتى كأني لم أفرط عليه .

تعليلات لغوية

وأما صاحب الثريدة البلقاء ، فليس عجبي من بُلْقَة ثريدته وسائرِ ما يظهر على خوانه كعجبي من شيءٍ واحد وكيف ضبطه وحصره ، وقوي عليه مع كثرة أحاديثه ، وصنوف مذاهبه وذلك أني في كثرة ما جالسته ، وفي كثرة ما كان يفتَنُّ فيه من الأحاديث لم أره خبر أن رجلاً وهب لرجل درهماً واحداً ، فقد كان يفتنّ في الحزم والعزم وفي الحلم والعلم ، وفي جميع المعاني ، إلا ذِكرَ الجود ، فإني لم أسمع هذا الاسم منه قط ، خرج هذا الباب من لسانه كما خرج من قلبه : وبؤكد ما قلت فيه ما حدثني به طاهر الأسير ، فإنه قال : ومما يدل على أن الروم أبخل الأمم ، انك لا تجد للجود في لغتهم اسماً ، يقول

إنما سمى الناس ما يحتاجون إلى استعماله ، ومع الاستغناء يسقط التكلف .

وقد زعم ناس أن مما يدل على غش الفرس أنه ليس للنصيحة في لغتهم اسم واحد يجمع المعاني التي يقع عليها هذا الاسم .

وقول القائل : « نصيحة » ليس يراد به سلامة القلب ، فقد يكون أن يكون الرجل سليم الصدر ولم يحدث سبب من أجله يقصد إلى المشورة عليك بالذي هو أردُ عليك على حسب رأيه فيك ، وجهاً لنفعك . ففي لغتهم اسم للسلامة ، واسم لإرادة الخير وحسنِ المشُورة وحملك بالرأي على الصواب فالنصيحة عندهم أسماء مختلفة ، إذا اجتمعت دلت على ما يدل عليه الاسم الواحد في لغة العرب فمن قضى عليهم بالغش من هذا الوجه فقد ظلم .

مائدة شهية

وكنت أنا وأبو إسحاق إبراهيم بن سيار النظام وقطرب النحوي وأبو الفتح مؤدب منصور بن زياد على خوان فلان بن فلان والخوان من جزعة [1] والغضار صيني ملمع ، [2] أو خلنجية كيماكية [3] والألوان طيبة شهية وغذية قدية [4] وكل رغيف في بياض الفضة كأنه البدر وكأنه مرآة مجلوة ولكنه على قدر عدد الرؤوس . فأكل كل إنسان رغيفه إلا كسرة ولم يشبعوا فيرفعوا أيديهم ولم يغذوا بشيء فيتموا أكلهم ؛ والأيدي معلقة وإنما هم في تنقير وتنتيف . فلما طال ذلك عليهم أقبل الرجل على أبي الفتح وتحت القصعة رقاقة فقال يا أبا الفتح : خذ لك الرغيف فقطعه واقسمه على أصحابنا ؛ فتغافل أبو الفتح ثم أعاد عليه القول فتغافل فلما أعاد عليه القول الرابعة قال : مالك ويلك لا تقطعه بينهم ! قطع الله أوصالك ! قال يبتلى [5] على يديّ غيري أصلحك الله ! فخجلناه مرة وضحكناه مرة وما ضحك صاحبنا ولا خجل

---

(١) الجزع ضرب من الخرز سمي كذلك لأنه مجزع اي مقطع بألوان مختلفة ولعله يريد ان الخوان من جلد او رخام او خشب مجزع (٢) يريد ان الصحاف من الخزف الصيني المصقول (٣) الخلنجية نسبة إلى الخلنج وهو شجر تتخذ منه الأواني والكيماكية نسبة إلى كيماك وهي ولاية في حدود الصين (٤) غذية كثيرة الغذاء وقدية أي طيبة (٥) أي الرغيف

جدول الخطأ والصواب

ص	س	خطأ	صواب
٩	١٦		يضاف في أول السطر : ٣ -
١٠	٤	الشنفيطي	الشنقيطي
١٣	١٢	المنحوله	المنمولة
١٤	١٨	الايثار	الاثرة
١٥	١	كثر ما	اكثر مما
١٥	٢٠	Caractere	Caractère
٣٠	العنوان	الطفيلي — ٢ —	— ٢ — الطفيلي
٢٠	٥	وكان ما بينه	وكان بينه
٢٠	٨	ثريده	ثريدة
٢٠	٩	بأكثر كذا في الأصل	وصوابها كأكثر
٢٠	١٣	عارية مسلوبة	مسلوبة عارية
٢١	٢	الطامعة	العامة
٢٢	١٢	للقصة التي فيها	للقصة فيها
٢٢	٢١	ومنها	ومنها
٢٣	٦	تحليل نفسي وتصوير	تحليلاً نفسياً
٢٣	٧	الهزل	هزلاً وفكاهة
٢٣	٨	التجرد	تجرداً
٢٤	١١	الواقعة	الواقعية

ص	س	خطأ	صواب
٢٥	آخر سطر	في	فن
٢٦	١٤	الجوّافة	الجُوَافة
٢٧	٢	تتمة هذه القصة	تتمة القصة
٢٧	١٥	إنما هو	إنما هي
٢٩	٧	٢٧٤	٢٧٣
٣٠	٢٠	بأن	أن
٣١	آخر سطر	يخرج	يمزج
٣٢	١١	كان نفسه	كان هو نفسه
٣٣	٧	فسأوجدك في	فسأوجدك ذلك في
٣٧	٣	١٠١	٢٠١
٣٨	٨	وإنه	وأنه
٣٨	٩	الدرهم في يده	في يده الدرهم
٣٩	١	الجَوَّافة	الجُوَافة
٣٩	١٠	٨١ — ٥٨	٨١ — ٨٥
٤٠	١	ص ١٢٢	ص ١٢٣
٤٠	هامش سطر (١)	وانبهر	وانبهر انقطع نفسه من الاعياء
٤١	١٧	الخرامي	الحزامي
٤٢	١	ينتهر	ينتهز
٤٢	٣	العيون	للعيون
٤٣	٦	رواتبها	رواتها
٤٤	سطر اخير	قريه	قَريَّه

ص	س	خطأ	صواب
٤٦	١٨	يضاف بعد العسكري	المتوفى سنة ٣٩٥
٤٩	٢	المروزي	المروزي
٤٩	٤	(هامش) لحم مصنوع	لحم مطبوخ
٥٠	١٤	يعدي	يتعدى
٥١	١	الأمر الذي نحن فيه	الأمر فيما نحن فيه
٥١	٢	(هامش) المتحول	المتجول
٥٢	٢	(هامش) تدلال	تدللي

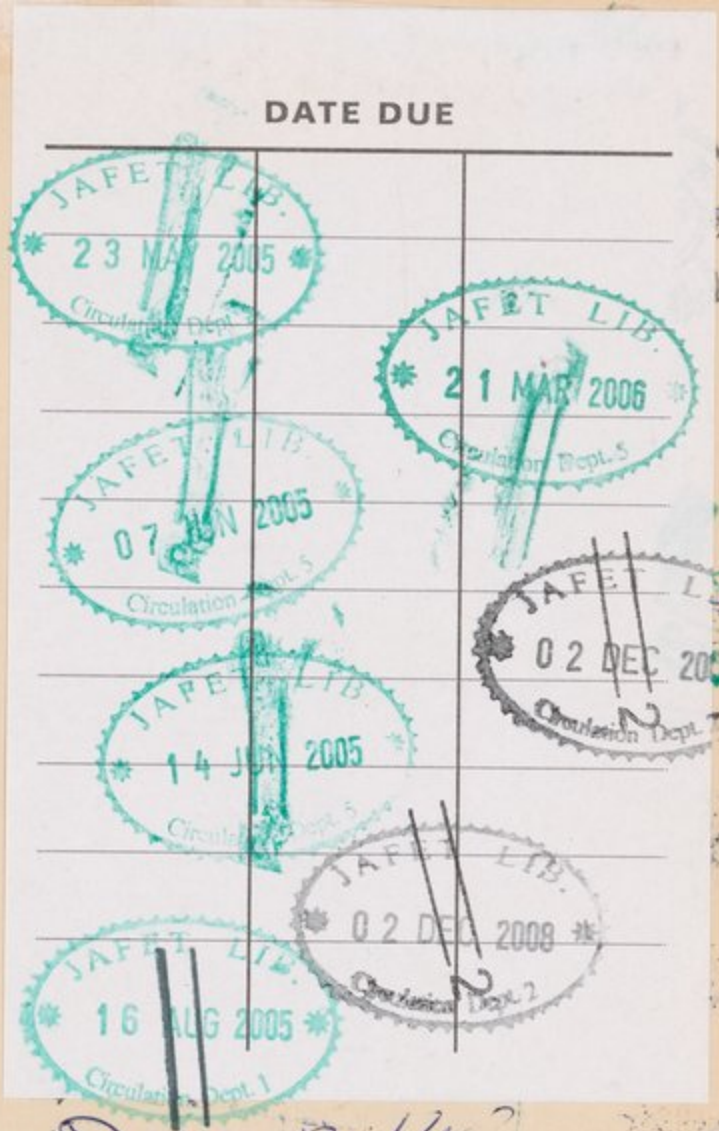
DATE DUE
JAFET LIB.
23 MAR 2005
Circulation Dept.
JAFET LIB.
21 MAR 2006
Circulation Dept.
JAFET LIB.
07 JUN 2005
Circulation Dept.
JAFET LIB.
02 DEC 2008
Circulation Dept.
JAFET LIB.
14 JUN 2005
JAFET LIB.
02 DEC 2008
Circulation Dept.
JAFET LIB.
16 AUG 2005
Circulation Dept.

808.3:M94jA:c.1
المبارك، محمد
الجاحظ وفن القصص من كتابه البخلاء
AMERICAN UNIVERSITY OF BEIRUT LIBRARIES
01031289

808.3
M94jA